الفصل السابع

العلم الأيونى فى القرن السادس

المهد الأسيوى للعلم اليونانى :

ربما قال مؤرخو العلم إن الفصول الثلاثة السابقة على هذا الفصل لا تحتوى من العلم الذى يعرفونه إلا نزراً يسيراً ، وربما قالوا كذلك إن الفصول الأولى من هذا الكتاب تحتوى على قدر من العلم أكثر كثيراً مما فى هذه الفصول الثلاثة . ويعجبون لذلك . وهاتان الملحوظتان صحيحتان . لأن العصر الهومیرى من أعظم العصور الأدبية فى القديم كله ، ولم يكن عصراً علمياً ، بل اشتهر بشدة العناية بالفنون الزخرفية التى تجعل الحياة أعظم جمالا ، وبالفنون العملية التى تجعلها أكثر بهاء . لكننا لا نستطيع أن نجد اهتماماً بالمعرفة لذاتها . ومع هذا فالموازنة بين الثقافة الهومیرية وغيرها من الثقافات الشرقية ليست موزنة عدلة ، لأن العصر الهومیرى لم يستمر إلا بضعة قرون قليلة ، على حين أن نمو الثقافة المصرية أو البابلية السابقة على العصر الهومیرى ظل مستمراً عشرة أمثال مدته . والحق أن العصر الهومیرى لم يكن إلا تمهيداً أدبياً لعصر العلم اليونانى .

واستعملنا فيما سبق لفظة « المعجزة » حين تحدثنا عن الروائع الأدبية كالإلياذة والأوديسية وظهورهما المفاجئ الذى بلغ من التمام والكمال مبلغ انبثاق أثينا نفسها من رأس زيوس كاملة السلاح تصيح صيحة عظيمة[1] . وليس ظهور العلم اليونانى ونموه فى مدة تبلغ ثلاثة قرون أسهل تفسيراً ، ولهذا نستعمل لفظة المعجزة[2] مرة أخرى للتعبير عن إعجابنا وحيرتنا . الواقع أن كثيراً من الأعمال العلمية تم خلال هذه المدة القصيرة (من القرن السادس إلى الرابع) ، وهى أعمال بلغ من تعددها ومفاجأتها وخطورتها ما ينبغى أن نخصص لها الجزء الباقى من هذا المجلد .

وسنبحث فى هذا الفصل وما يليه مولد العلم اليونانى فى القرن السادس فى أيونية (شكل ٤٢) . ويذكر القارئ أن الإلياذة كتبت بلهجة قريبة من اللهجة الأيونية . وأنها تتراءى فيها الأخلاق والعادات التى اتصف بها أفول العصر المينوى . ذلك أن الصلة بين أيونية وأرض مينوس لم تكن صلة عرضية عابرة ، فالأيونيون الأولون إلى حد كبير مهاجرون من كريت[٣] . ثم إننا وصفنا العصر

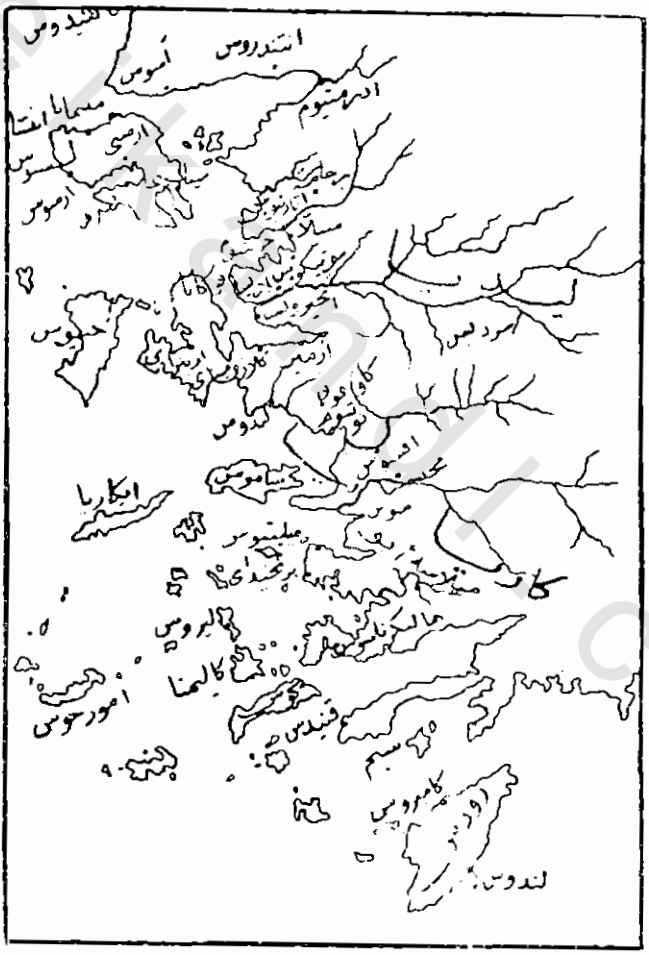

شكل (٤٢) أيونيا وغرب آسيا الصغرى

الهوميرى على أنه إحياء للعصر الموكينى . ونستطيع أن نقول كذلك إن الفلسفة الأيونية ، التى سوف نتحدث عنها فيما يلى زهرة لسلسلة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب ، بل مينوية كذلك .

بعبارة أخرى ينبغى — أو على الأقل يمكن — أن تعد الفلسفة الأيونية ، والشعر الهوميرى كذلك ، نهاية لا بداية . ومع هذا فلسنا فى حاجة إلى الجدل حول هذا الموضوع ، أولا : لأن كل نهاية بداية ، وثانياً : لأن البحث الأساسى لا يتغير على أى وجه تصورنا الأمر ، وهو كيف حدث أن كان مولد العلم اليونانى فى أيونية ؟ ليست التفسيرات الجغرافية كافية ، لأن البيئة على جانبى بحر إيجة متشابهة إلى حد كبير . وليست التفسيرات الجنسية أكثر قبولا ، لأن أشباه سكان ذلك الإقليم ، أو أشباه الخليط من سكانه ، عاشوا فى أجزاء مختلفة من تلك المنطقة . ولذا أجازف بتقديم تفسيرين اجتماعيين : أولهما أن المستعمرين الأيونيين كانوا جماعة ممتازة من الناس تعيش فى بيئة سياسية جديدة من صنع أيديهم إلى حد كبير ، أى بيئة متفقة وأمزجتهم ، ومن أجل ذلك يبدو أنهم اتصفوا بالشجاعة ، وسعة الحيلة ، والمبادأة ، والحرية النسبية من القيود . ويشبه نجاحهم ما قام به غيرهم من المستعمرين فى زمن أكثر تأخراً ، وهم « الآباء الحجاج » الذين استقروا فى نيو إنجلند بأمريكا سنة ١٩٢٠ ، ونستطيع أن نفسر نجاحهم هذا من بعض الوجوه بنفس تفسيرنا لنجاح أولئك المستعمرين المتأخرين . ذلك أن الحجاج الأيونويين أنشأوا كريتاً جديدة على الشاطىء الغربى لآسيا ، وشاءت المقادير أن تصبح كريت الجديدة هذه مهد اليونان الجديدة . أما التفسير الثانى فهو أن الشاطئ الغربى للأناضول كان إقليما ممتازاً لامتزاج الأفكار والثقافات والحوافز الناشئة عن ذلك ، وإذا أخذ الناس فى الاستقرار فى أرض أسلافهم ، فإنهم لا يسألون أنفسهم أسئلة كثيرة ، لأن كل مسألة سبق لها أن سئلت وأجيب عنها مرات عديدة ، ولا طائل فى شغل أنفسهم بعد ذلك . أما حين يجتمع قوم من أجناس مختلفة وتقاليد متباينة ،

فلا بد عاجلا أو آجلا أن تتصور فئة من أذكاهم عقلا وجود أكثر من طريق للنظر إلى الأشياء وحل المشكلات . فإذا كانت هذه الفئة على ذكاء كبير فإنها لا تلبث أن تتساءل عن صحة الحلول التقليدية الجارية بينها ، أو أن تدرك أن الأشياء التى يفكر الناس فى السؤال عنها أبداً هى فى الواقع موضع للسؤال . ولم تكن موانى إقليم أيونية نهايات الطرق البحرية اليونانية والفينيقية والمصرية فحسب ، بل هى كذلك نهايات الطرق البرية الأناضولية التى تربط هذه الموانى مرحلة إثر مرحلة بآسيا كلها . وهكذا كانت الأحوال العامة ملائمة إلى أعظم حد لنمو العلم . ولم ينقصها سوى وجود قوم يمتازون بعبقرية فطرية تكفى لرفع شأن هذه الأحوال . ودل الأيونيون على أنهم هؤلاء القوم ، إذ أثبتوا من قبل عبقريتهم فى الشعر ، وآن أوانهم أن يثبتوا هذه العبقرية مرة أخرى فى ميدان جديد هو الفلسفة الطبيعية ، أو كما أطلقوا عليها « الفسيولوجيا »[٤] ، وقد فعلوا ذلك .

وبلغ نجاحهم المادى والفكرى من العظمة حداً جعل « البرابرة » (أى الشعوب التى لا تتكلم اليونانية) يستعملون إلى فترة طويلة من الزمن لفظة «أيونى» للدلالة على جميع اليونانيين ، كما أطلق المسلمون على المسيحيين اللاتينيين اسم « الفرنجة » ، وكما أطلق الأمريكيون الجنوبيون اسم « اليانكى » على جيرانهم بأمريكا الشمالية .

آسيا موطن الأنبياء :

يحسن قبل الفحص عن أعمال الأيونيين أن نلقى نظرة على العالم كما كان فى ذلك العصر ، أى فى القرنين السابع والسادس ، مع العلم بأننا عرفنا القارئ من قبل بالعالم الأيونى الصغير . كما عرفناه بالعالم الإيجى . والمصرى ، والبابلى ، وغير ذلك . واختلفت جميع هذه العوالم بعضها عن بعض فى كثير من النواحى ، دون أن يكون أى واحد منها مختلفاً تمام الاختلاف عن سائر الآخرين . وليست عبارة « عالم واحد » من ابتكار السياسى الأمريكى وندل ولكى ، إذ غدا العالم

كله واحداً منذ العصور القديمة إلى درجة ارتباط أجزائه بالمواصلات [٥] . وانتظمت طرق المواصلات فى تلك العصور انتظاماً لا بأس به فى كثير من الجهات (وظلت كذلك قروناً أو آلافاً من السنين) . ومع هذا بقى كثير من وجوه الاختلاف بين أجزاء العالم . وإذا نحن أردنا أن نسوق هنا تشبيهاً طبيعياً . فنقول إن العالم الواحد لم يكن متماثل الخصائص من جهة العلاقات الاجتماعية (وليس حاله الآن كذلك ولن يكون) ولم تكن سرعة المواصلات ولا سهولتها واحدة بأى حال فى كل اتجاه . ولذا ظلت بعض الأجزاء أكثر تماسكاً من غيرها ، وتكونت أنواع من الجماعات والفروع فضلا عن الجماعات الخليطة .

لذا ينبغى أن نتساءل ماذا كان يحدث فى الأجزاء الأخرى من العالم أثناء حضانة العلم اليونانى فى أيونية . وأول ما نقول : إن عالم البحر المتوسط ليس إلا جزءاً صغيراً من العالم (انظر إلى الكرة الأرضية) ، وإن أيونية ليست سوى رقعة صغيرة جداً من ذلك الجزء الصغير (فهى لا تكاد ترى فى خريطة الكرة الأرضية) . وسنعود إلى الحديث مرات كثيرة عن أيونية وحوض البحر المتوسط فيما بعد ، أما الآن فلننظر إلى غيرهما . وقد عرضنا لأحوال المصريين والبابليين فيما سبق ، لكن ثمة بلاداً أقرب إلى أيونية من مصر أو بلاد ما بين النهرين ، وهى أرض كنعان أو فلسطين الغريبة على اليونانيين غرابة مصر وبلاد ما بين النهرين ، أو أكثر قليلا . وفى تلك الأرض كان كثير من أسفار الأنبياء فى العهد القديم قد ظهر قبل نهاية القرن السابع ، وهى : عاموس ، هوشع ، ميخا ، أشعيا ، حزقيال ، صفنيا ، إرميا ، ناحوم ، حبقوق ، وتم كذلك كل من الناموس (أو التوراة) وأسفار صموئيل . وسنعود إلى صموئيل فيما بعد ، أما الآن فلنبحث الأنبياء والتوراة فقط ، ولنوازن بينها وبين الكتابات الهوميرية . والفرق بين اللغتين اليونانية والعبرية صغير بالقياس إلى الفرق فى أساليب تفكيرهما ، إذ كان النبى العبرى عرافاً [٦] ، أما المنشد اليونانى فكان شاعراً وقصاصاً ، يشير أحياناً إلى الآلهة والأبطال كما يشير للبشر المألوفين ، على حين تكلم النبى

العبرى باسم الرب ، باسم الإله الأحد والعدل الأزلى . كان التباين بينهما عظيما مما يجعل الصلة بين العبريين والأيونيين تهبط أكبر الظن إلى شيء ضئيل .

ولا بد أنه جاء مع القوافل الواصلة إلى ملطية (Niletos) أو السفن الجارية نحو مصب نهر ميائدروس تجار كانوا يفدون من أقصى الشرق ، أو يلتقون بغيرهم من تجار إقليم حاليس أو أقاليم الفرات والدجلة الشمالية وما وراءها . ولعل بعض الأخبار تسربت إلى أولئك التجار عن إيران ، حيث عاش (أو كان بها من قبل) نبي عظيم هو زرادشت (وهو الذى سماه اليانانيون فيما بعد زروشتر) . والمعروف أن زرادشت بشر بوحدانية تختلف عن وحدانية العبريين ، لكنها ممتزجة مثلها أعمق امتزاج بالأخلاق . وكان إله الإيرانيين كإله اليهود تشخيصًا ، أو قل إنه أقانيم الخير والعدل والصفاء . ومن المحتمل أن الأيونيين لم يعيروا رسالة زرادشت أكثر مما أعاروا رسالة اليهود من التفات ، على فرض أنها وصلتهم (وهذا مشكوك فيه) ، لأن عنايتهم لم تكن موجهة إلى تلك الرسالة فى ذلك العصر . وليس معنى ذلك أن نفوسهم لم تتأثر بأى أمر حق أو صادق ، أو طاهر ، أو عادل ، أو جميل ، أو عظيم ، بل لأنهم نظروا إلى تلك الأمور من زاوية أخرى .

وكان الاتصال بالهند يتم بعدة طرق أبسطها عبر الخليج الفارسى ونهر الفرات ، وفى القرن السادس ظهر فى الهند نبيان عظيمان وهما : بوذا وماهافيرا ، ولكل منهما مذهب عميق يتعلق بالحياة الصالحة للبشر . وظهر خلال المدة نفسها فى أقصى الشرق الأقصى نبيان آخران فى الصين هما : لاوتسو[٧] ، وكونفوشيوس . ويكفى هنا أن نشير إلى هذه الموافقات الزمنية المذهلة ، إذ من المستحيل شرح البوذية أو الجانية أو الطاوية أو الكونفوشيوسية فى فقرات قليلة . ويحسن بالقارئ أن يستطلع تلك الموضوعات فى مراجع أخرى بمقدار ما تستحق وبمقدار رغبته[٨] . وجوهر الأمر أنه على حين نمت « الفسيولوجيا » فى أيونية ، كان الأنبياء والعرافون ومعلمو الأخلاق يؤدون رسالتهم فى فلسطين وإيران والهند

والصين . وكانت أرض هؤلاء وأولئك أعظم رقعة من أرض أوائل الفسيولوجيين ، لكن نجاحهم كان متساويًا ، لأنهم عملوا جميعًا ، الأنبياء والعلماء الأوائل ، (ولو أنهم لم يدركوا ذلك) لرفع الإنسانية إلى مستوى أعلى ، أقرب إلى الآلهة ، وأبعد من الحيوانات .

وكان مدى الاتصال بين أنبياء آسيا واليونانيين صغيراً جدًّا ، وهو فى أوضح درجاته لا يعدو إشارات عابرة ، أو عبارات انتقلت من آداب أحدهما إلى أدب الآخر (مثال ذلك صور المصريين فى المزامير) أو تعبيرات زخرفية الفنون الجميلة (مثال ذلك التعبيرات المصرية فى المصنوعات العاجية السامرية أو فى آثار الآخامينين فى بزرجاد[٩]) وسنذكر بعض الإشارات التى تتضمنها النصوص اليونانية فيما بعد ، إذا كان ثمة سبب لذكرها ، لأننا فى الحقيقة فى غير حاجة إليها فى بحثنا . لكن الأمر الذى يجب أن نجعله نصب أعيننا هو أن شاطئ أيونية كان مركزاً عظيما للمواصلات بين الشرق والغرب ، وأن المستعمرين الكريتيين لذلك الشاطئ الآسيوى وجدوا هناك عوامل ممتازة ، لا لازدهارهم المادى فقط ، بل لحثهم على التفكير . وليس الوسطاء بحاجة إلى أن يكونوا ضخامًا . ولا تكون أعمالهم متناسبة بأية حال مع حجمهم . وفى أيونية تأثرت العبقرية اليونانية بخمائر مصرية وآسيوية ، والتقدم على الدوام ثمرة من ثمرات التوفيق بين التقاليد القديمة والمغامرة الجديدة ، وفى أيونية تجددت التقاليد الإيجية بفضل المتجددات الوافدة من وراء البحار ، وبالحريات الجديدة والقيود الجديدة .

ملطية الأيونية :

فلنركز الآن اهتمامنا على أهم ميناء وأغنى سوق فى أيونية ، أى ميناء ملطية[١٠] . استعمرها الكريتيون بعد أن سموها باسم مدينة تقع على الشاطئ الشمالى الشرقى من ساحل كريت[١١] . وكانت ملطية « الجديدة » تقوم على

لسان من الحجر الجيرى بين خليجين قرب مصب نهر ميائدروس . وعلى مر الزمن رسب هذا النهر كمية هائلة من الطمى حول مجراه الأدنى ، فتحول هذان الخليجان إلى مستنقعات . ويكاد حوض النهر فى الوقت الحاضر يحيط بموقع المدينة القديمة . والذى يعنينا هو ذلك الموقع القديم الممتاز لأغراض الملاحة والتجارة ، أما المدينة البارزة فى البحر كأنها سفينة ضخمة ، فأطلت عليها وحمتها جزر صغيرة متعددة ورؤوس صخرية أحسن حماية . وكان للمدينة أربعة مرافئ تستطيع أن تصل إلى أيها فى سهولة أنواع السفن الوافدة من رودس أو من أقصى الجنوب ، ومن فينيقية ومصر ، أو من الغرب مجتازة الأعاصير والدوامات ، أو من خيوس وسبوس والدردنيل . حقًا كانت الطرق البرية أقل سهولة ، لكن التجارة البحرية ملأت سوق ملطية إلى حد أن القوافل كانت تلتمس طريقها إلى هنالك مهما تكن المخاطرة أو الثمن . وفضلا عن ذلك فإن الموارد الزراعية للحقول والبساتين المجاورة كانت كافية لتغذية المدينة ، وللسماح بتصدير كثير من المواد الغذائية ، أو على الأقل بتموين الجماعات المتزايدة . وأكبر الظن أن تجارة زيت الزيتون[١٢] والتين كانت فى غاية الأهمية . وكان من اليسير الحصول على الكتان والصوف من مسافة قريبة ، وانتعشت تجارة الصوف حتى ذاعت شهرتها . أما طراز الفخار الملطى فاستقر منذ القرن السابع .

ولم ينته طريق القوافل الرئيسى عند ملطية ، لأنه اخترق ساردیس وفيها أعظم سوق داخل البلاد ، وكان الأسهل أن تنتقل القوافل من ساردیس إلى ثغور أخرى — مثل ثغر كيمه ، وفوقايا ، وأزمير ، أو أفيسوس ، وذلك لأن موقع ملطية بعيد إلى الجنوب بعض الشىء . وازدهرت ساردیس عاصمة ليديا إلى الدرجة التى أصبحت ثروة أحد ملوكها ، أسطورية ، ولا تزال حتى الآن[١٣] ، وهو الملك كرويسوس (قارون) ، آخر من ارتقى عرشها . وكانت بعض البضائع التى تصل إلى ساردیس من بابل وفارس تتحول إلى ملطية .

وكيفما كان الأمر غدت التجارة البحرية الجديدة سبب ازدهار ثروة

ملطية وعظمتها . ومما ساعد على ازدياد تلك التجارة وجود كثير من المستعمرات الملطية على طول شواطئ بحر بروبنتس (مرمرة) وبحر يوكسين (البحر الأسود) (انظر شكل ٤٣) ، ويرجع تاريخ بعض هذه المستعمرات إلى القرنين الثامن والسابع . وكذلك كانت مدينة نقراطيس الواقعة فى دلتا النيل مستعمرة ملطية فى الأصل . وربما ترجع إلى القرن السابع . غير أنها لم تحظ بأهمية كبيرة إلا حين أعيد تنظيمها أثناء حكم خامس ملوك الأسرة السادسة والعشرين . وهو أحمس الثانى (المعروف باسم أمازيس Amasis عند اليونان) الذى حكم من عام ٥٦٩ حتى عام ٥٢٥ . وكان لتجار ملطية مخازن فى نقراطيس يجمعون فيها جميع أنواع البضائع المصرية والإفريقية ، ويحملون الكثير منها على ظهر السفن إلى ملطية لتوزيعها فيما بعد . وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل .

ولنتم أولاً استعراضنا الموجز لتاريخ ملطية . وهو أنه بعد هزيمة قارون وفتح ليديا على يد قورش (٥٤٦) ، خضعت أيونية لسلطان الفرس . أما ملطية فلقيت معاملة ممتازة عن غيرها من المدن ، وسمح لها بنوع من الاستقلال . ونحن نحسن فهم هذه الأمور فى ضوء الحوادث الجارية فى تاريخ أوربا الحديث ذلك أن الفرس توقعوا أن يؤدى التعاون « ناجر » مع ملطية إلى نتائج أفضل مما يحصلون عليه منها إذا خضعت تماماً . فآثروا استنزاف دم المدينة القديمة على قتلها . الواقع أن ازدهار ملطية ظل مدة من الزمن فى ظل الحكم الفارسى ، ومع هذا نستطيع أن نتصور ازدياد سخط تجار اليونان على سادتهم الفرس . وتزعمت ملطية ثورة أيونية أخمدت عام ٤٩٤ ، وتهدمت المدينة وقتذاك . ثم حررت ملطية عام ٤٧٩ عقب انتصار اليونان على الفرس فى وقعة ميكال (شمال نهر مياندروس) . لكنها لم تستعد قط مجدها الأول[١٤] .

ولنعد إلى منتصف القرن السادس . أى إلى ما قبل الفتح الفارسى . حين كانت ملطية أغنى سوق فى شرق بحر إيجه ، والمركز الرئيسى لتوزيع البضائع بين أيونية والجزر اليونانية وفينيقية ومصر والبحر الأسود ، وإلى درجة

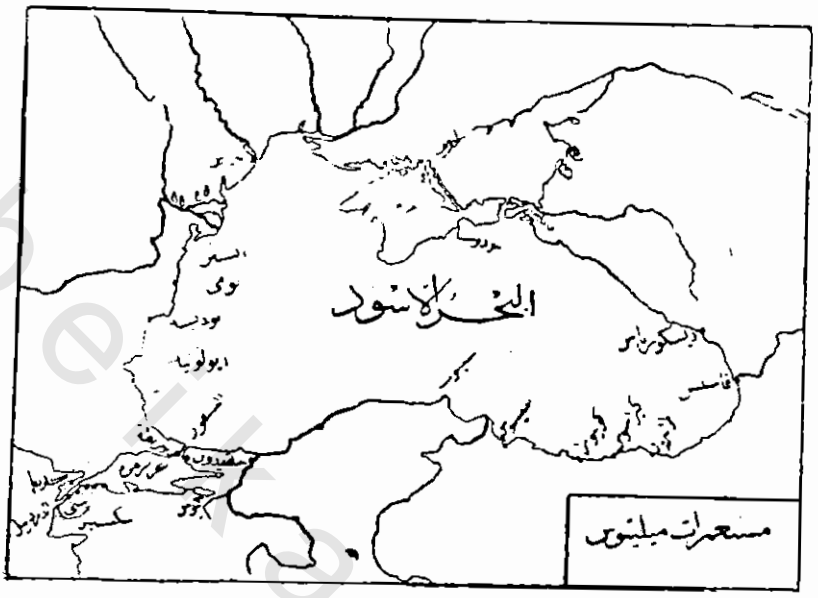

شكل (٤٣) مستعمرات ملطية فى البحر الأسود وبحر مرمرة

أقل . العراق وما وراءها من الدول شرقًا . ومن الدليل على ذلك كشف أنواع من الخزف ترجع إلى القرنين السابع والسادس فى مصر ، والجزر اليونانية ، والأناضول ، وجنوب روسيا .

ولا بد أن عرف بحارة ملطية وتجارها تمام المعرفة أجزاء العالم التى امتدت إليها تجارتهم ، كما أصبحوا على خبرة وثيقة بكثرة متنوعة من البلاد والشعوب والأديان واللغات والعادات . وهكذا أقيم مسرح كامل ممثلوه على أهبة الاستعداد . وبما أن الكريتيين أو اليونانيين (سمهم ما شئت) ذوو همة وخيال واستطلاع كما نعرف من هوميروس . فلا غرابة أن يتساءلوا أسئلة كثيرة ، لكنهم إلى جانب ذلك شرعوا فى جمع الإجابات وتصنيفها ، فانتهوا بذلك إلى الاضطلاع ببحوث جديدة فى كثير من الميادين — الفلك ، والطبيعة ، والرياضة ، والجغرافيا وعلم الخرائط ، وعلم الأجناس البشرية ، وعلم الحياة ، والطب .

ومن الطبيعى أن يكون علمنا بتلك البدايات غامضًا وغير وثيق . ولم تصل

شكل (٤٤) صفحة العنوان من أول طبعة يونانية الأقوال الحكماء السبعة . باريس عام ١٥٥٤ ، انظر الحاشية رقم ١٩ . ولا ذكر لهذه الطبعة ولا لأى كتاب من هذا النوع ضمن الكتب الواردة فى :
Bibliographie hellénique aux XVe XVIe siècles (4 vols. Paris 1 5-1906), Bibliographie ionienne (2 vols. Paris 1910) (نشرها Emile Legrand ١٨٤١ – ١٩٠٣)

إلينا أى كتب عن الفسيولوجيين الأوائل ، بل روايات ، هى فى بعض الأحيان متأخرة وغامضة . وهنا نجد التباين عظيماً بين مصر وبابل وأيونية ، لأن معرفتنا بعلوم مصر وبابل مستمدة من وثائق صحيحة معاصرة مدونة على أوراق البردى أو الطين المجفف مما يسهل علينا الحصول عليه مباشرة ، وليست لنا حيلة فى هذا الأمر إلا أن نستخلص أقصى ما نستطيع الحصول عليه مما تسرب إلينا من أخبارهم . وتم جمع الروايات القديمة الخاصة بالفكر الأيونى ، كما جمعت النصوص المباشرة وغير المباشرة من كتاباتهم المفقودة ، وتم تحليلها ونقدها

obeikandl.com

كذلك . وسنعتمد فى بحثنا على الروايات القديمة ، ونذكر من النصوص ما نراه ضروريًا ، ونشير فى بعض الأحيان إلى طبيعة الآراء وتاريخها (حين يتيسر ذلك بإيجاز) ، غير أنه يصعب أن نقدم نقداً لهذه المصادر دون إطالة الكلام أكثر مما يسمح به هذا المجال ولا ينفد معه صبر القارئ[١٥] .

واضطلعت أكاديمية برلين منذ عام ١٨٩٩ بإجراء حفائر فى ملطية تحت إشراف تيودورفيجاند (١٨٦٤ – ١٩٣٦) . وظهر كثير من التقارير[١٦] عن هذه الحفائر منذ عام ١٩٠٦ .

الحكماء السبعة :

بدأت معظم الروايات الخاصة بالعلم الأيونى القديم أول ما بدأت أسطورية وأحسن مثال لها أسطورة الحكماء السبعة التى لعبت بخيال الأجيال . واتخذت كأى أسطورة رائجة صوراً عدة (شكل ٤٤) . وهذا نص إحدى صور هذه الأساطير : ازدهر فى أوائل القرن السادس سبعة رجال اشتهروا بحكمتهم فى الفلسفة والسياسة (وهؤلاء الحكماء السبعة hoi hepta sphoi هم : طاليس من ملطية ، كليوبولس من رودس ، بياس من برين ، بيتاقوس من ميتيلين ، سولون من أثينا ، برياندروس طاغية كورنثة ، وخليون من لاكدامون) (شكل ٤٥) . ويلاحظ أن هذه القائمة تشمل أربعة من الساحل الآسيوى أو الجزر الآسيوية (الأربعة الأولون فى القائمة المذكورة) مقابل ثلاثة من شبه جزيرة اليونان . وتختلف القائمة من مؤلف إلى آخر[١٧] . والقائمة محدودة دائمًا بسبعة أسماء ، لكن يبدو أن أربعة منها تذكر باستمرار وهم : طاليس ، وبياس ، وبيتاقوس ، وسولون ، أن ثلاثة من الشرق مقابل واحد من الغرب[١٨] . ونلاحظ من بين الأسماء التى تشتمل عليها القوائم الأخرى أناخارسيس الأمير الاسكيذى ، وابيمنيدس الكريتى حكيم ذلك الزمان الذى يشبه ولا ريب فإن وينكل فى الأدب الأمريكى . وكل من هذين الحكيمين

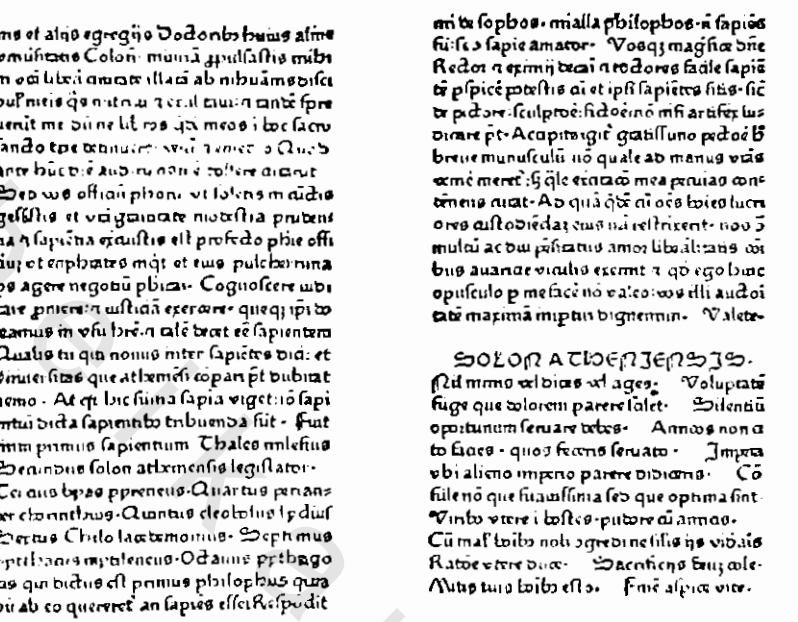

شكل (٤٥) صفحات من الطبعة اللاتينية الأولى « لأقوال الحكماء السبعة »

(Cologne, Johann Guldenschaff, C. 1477-14 7)

انظر حاشية رقم ١٩ . وهذه الصفحات المختارة هى الصفحات الأخيرة المشتملة على أقوال طاليس وخيلون اللاسيدومى (٥٦٠ – ٥٥٦) الذى مات من الفرحة حين حصل ابنه على جائزة الألعاب الأولمبية . وأفلاطون هو أول من عد خيلون هذا بين الحكماء السبعة . عن مكتبة مورجان بنيويورك .

مقبول من الناحية التاريخية . لكن هناك قوائم أخرى تشتمل على أشخاص عاشوا فى زمن آخر . مثل أبيخارموس من قوس (٥٤٠ – ٤٥٠) ، أو أنكساجوراس (٥٠٠ – ٤٢٨) . أو أشخاص أسطورية مثل أورفيوس . ولما كان من المفروض أن الحكماء السبعة بقطع النظر عن أصولهم يمثلون الحكمة القديمة ، ولما كانت الأمثال السائرة تمثل تلك الحكمة على نحو مختلف . نسب منذ الزمن القديم كثير من تلك الأمثال إليهم . وهكذا يقال إن طاليس هو الذى ابتكر القول المأثور « اعرف نفسك » (gnothi sauton) وينسب إلى سولون « خير الأمور الوسط » (meden agan) . وإلى بيتاقوس « انتهز الفرصة »

(Cairon gnothi) ، وهلم جرًّا [١٩] . وتربط بعض الروايات التى ذكرها هيرودوتس[٢٠] بين بعض الحكماء وبين كرويسوس (قارون)، مما لا يتفق مع التاريخ (عاش كرويسوس فى الثلث الثانى من القرن لكنها تمتاز بالخيال الشعبى . إذ من الطبيعى أن يذهب أحكم الناس إلى بلاط أعظم ملك[٢١]

ويهمنا أحد أعضاء هذه المجموعة — ونستطيع أن نسميه العضو الممتاز ، لأنه لا يغفل أبداً ، بل يذكر عادة على رأس القائمة — وهو طاليس الملطى . لأنه أول الفلاسفة اليونان « الفسيولوجيين » [٢٢] . بل يمكن أن نقول إنه الأول فى تاريخ العالم .

طاليس الملطى :

عندما أحس اثنان من الحكماء وهما طاليس وبياس بالخطر الذى تعرضت له بلادهم من ازدياد قوة الفرس ، نصحا المدن الأيونية بالاتحاد وتكوين مجلس عام فى تيوس . وتوحى هذه القصة وغيرها بأن طاليس كان رجلا عمليًّا ، وما أشبهه أن يكون فرانكلين الزمن القديم، يقال إنه كان من أصل فينيقى ، وليس ذلك ببعيد ، لكن مرجعنا الوحيد فى هذه الرواية هو هيرودوتس[٢٣] . ولد طاليس عام ٦٢٤ وعاش حتى بلغ عام ٥٤٨ أو ٥٤٥ ، ومعنى ذلك أنه من المحتمل أن امتد به العمر ليشهد فتح الفرس الذى سعى إلى تفاديه .

ولعله تشرب بعض معرفته وعبقريته من أصله الفينيقى ، ومن المحتمل أنه تشربهما كذلك من الأيونيين الذين أصبحوا فى ذلك الزمان أمة غنية مفتونة بجمع المال ، متمهرة بكثير من الحرف ، لكنها تحتاج أكبر الظن إلى الوحدة . وماذا كان لهذا الشعب المزدهر غير المتحد أن يفعل ضد جيرانه المستعمرين المحاربين ؟ وكان فى ملطية الشىء الكثير مما يمكن أن يتعلمه ، لكنه لم يكن كافيًا لإشباع نهمه ، فرحل إلى مصر حيث اجتذبت اهتمامه آراء فلكية ورياضية جديدة .

ولا بد أن شهرته بلغت مبلغًا عظيمًا . لأنه صار أحد الحكماء السبعة ، وتشتمل كل قائمة منها على اسمه الذى يذكر عادة فى أولها . ومن الغريب أن شهرته تعتمد فى أساسها على عمل نحن مضطرون الآن إلى عدم الثقة به ، ولو أن صحته ظلت موضع تصديق كأنها اعتقاد ثابت إلى زمن قريب جدًّا .

إنها أسطورة تكاد تكون ثابتة (وهى تظهر من آن لآخر فى الكتب العامة) وتستحق منا الرواية . الواقع يجب أن نرويها ، لأننا لا نستطيع تجريحها قبل ذكرها أولا . وهى ترجع إلى زمن قديم جدًّا . ونصادف أول تسجيل لها عند هيرودوتس[٢٤] . وكانت الحرب بين الليديين والفرس ناشبة زمنًا طويلا ، تميل فى جانب تارة . وفى الجانب الآخر تارة أخرى ، ولكن دون انتصار حاسم . ثم وقف الجيشان يتحدى أحدهما الآخر عام ٥٨٥ حين وقع كسوف الشمس (٢٨ مايو) سبق لطاليس أن تنبأ به . فتأثر الملكان إلى حد أنهما توقفا عن القتال . ثم رضى الملكان بعقد صلح موثق بالأيمان والمصاهرة بفضل مهد شخصين سعيا إلى السلم هما سينيس الفينيقى ، ولا بينيتوس البابلى . ويقال إن طاليس أعلن حكمًا فى نبوءة دلفى عام ٥٨٢ ، وأن ذلك الشرف يرجع إلى تنبئه بالكسوف الذى ينسب إليه .

إنها أسطورة بديعة . لكنه غدا من المستحيل أن نعتقد فى صدقها . والمفروض أن البابليين اكتشفوا مدة الدورة الفلكية . واستطاعوا باكتشاف هذه المدة أن يتنبأوا بالكسوف . وسمع طاليس بذلك الاكتشاف وهو فى مصر ، ولعله شهد الكسوف المصرى الذى وقع عام ٦٠٣ أو سمع عنه . واستنادًا إلى هذا الاكتشاف لابد أن يحدث كسوف جديد . أو يحتمل على الأقل أن يحدث بعد ٢٢٣ شهرًا اقترانيًّا ، أى بعد ١٨ سنة و ١١ يومًا ، وذلك عام ٥٨٥ . ومن المسلم به اليوم بين مؤرخى علم الفلك القديم كما بينا من قبل أن البابليين لا يحتمل أن يكونوا اكتشفوا تلك المدة قبل القرن الخامس أو الرابع ، ولذلك فلا يمكن أن يكون طاليس تعلمها منهم . وينبغى أن نذكر إلى جانب ذلك أن المشاهدات الفلكية البابلية . ومن الجائز أن تكون المصرية كذلك ، تكررت

خلال زمن طويل جداً . أيكون طاليس قد حدس حدساً موفقاً ؟ وحتى هذا الفرض مما يصعب قبوله . هذا ورواية هيرودوتس فى غاية الوضوح ، هى « أن طاليس الملطى تنبأ للأيونيين باحتجاب ضوء النهار ، وحدده فى أثناء العام الذى وقع فيه هذا الاحتجاب بالفعل » . أيدل هذا على أن طاليس لم يستطع أن يحدد إلا سنة الكسوف لا اليوم ؟ فإذا كان ذلك كذلك لذهب الأثر السيكولوجى لتنبؤه .

يجب إذاً أن نستنتج أن طاليس لم يتنبأ بالكسوف الشمسى الذى وقع فى ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ . لأن المعرفة اللازمة لذلك أعوزته ، لكن لعله زعم أنه تنبأ به ، أو أن أصحابه اعتقدوا ذلك لسبب ما . ومن الغفلة اليوم أن نزعم أنه تنبأ به ، وأعظم من ذلك غفلة القول بأنه أدرك تلك الظاهرة . ذلك أن التفسير العلمى المألوف لدينا لم يكن فى استطاعته فهمه ؛ لأنه يتصور الأرض قرصاً يسبح فى الأوقيانوس .

ولنرجع إلى الموازنة الأولى بين طاليس وفرانكلين ، فكلاهما عاش فى بيئة حافزة ، واستجاب كل منهما إلى بيئته بعقل واسع وعبقرية طبيعية . وكان كلاهما محباً للبحث سريع التعلم ، مستعداً لتطبيق معرفته على الأغراض العملية . وتشبه رحلة طاليس إلى مصر رحلة فرانكلين إلى إنجلترا ، فشهد كل منهما ما يجرى فى « العالم القديم » فى كثير من الشغف ، وعادا يحملان معهما الأفكار التى كانا يعتقدان فى نفعها . وجلب فرانكلين العلم بالكهربا . كما جلب طاليس المعرفة بالفلك . وليس هذا الصنيع بالشىء اليسير .

وكان طاليس أول الرياضيين اليونانيين ، كما كان أول الفلكيين ، وتعلم فى مصر ، لا دورة الكسوف المتعاقبة فحسب ، بل تعلم أيضاً طائفة من الحقائق الهندسية . وبفضل الروح العملية التى تشبع بها تعلم طاليس الحقائق ونسى الشعوذات العملية ، ثم حاول الاستفادة من هذه الحقائق فى حل بعض المشكلات ، ومنها قياس ارتفاع بناء ، أو بعد سفينة عن الشاطئ . ولسنا ندرى بالضبط كيف حل هذه المشكلات ، لأن ثمة حلولا متعددة ممكنة ،

يتطلب كل منها الموازنة بين المثلثات المتشابهة . ومما هو أجدر بالتسجيل أن طاليس لم يقف عند ذلك الحد ، بل أراد بما عنده من انتباه عقلى وعملى على السواء أن يفسر حلوله ، مما أفضى به إلى الكشف عن مبادئ هندسية ، بل عن علم الهندسة .

وتعزى إليه طائفة من القضايا الهندسية : (١) يقسم القطر الدائرة قسمين متساويين ، (٢) زاويتا المثلث المتساوى الساقين متساويتان ، (٣) إذا تقاطع مستقيمان فالزاويتان المتقابلتان بالرأس متساويتان ، (٤) الزاوية المرسومة فى نصف الدائرة قائمة ، (٥) أضلاع المثلثات المتشابهة متناسبة ، (٦) يتطابق المثلثان إذا تساوت فيهما زاويتان وضلع . أكان طاليس يعرف جميع هذه القضايا وكل قضية منها . أو أنه عرف قضايا مماثلة لها ؟ أكان قادراً على برهنتها ؟ وإذا لم يكن قادراً فكيف عرفها ؟ لسنا نعرف شيئاً يقينيًّا عن هذه الأمور ، لكن لعلنا نستطيع أن نقول إن طاليس هو أول شخص فى أى دولة تصور الحاجة إلى القضايا الهندسية . وهذا يسلمنا إلى نوع من التناقض ، لأننا أصررنا على القول بأن طاليس كان مثل فرانكلين رجلا عمليًّا ، ومع هذا فإن قيمته الفكرية الهامة كانت فى تبينه أن حل المسائل ليس كافيًا ، بل ينبغى أن يعقل الإنسان الحل . ورفع هذا التناقض سهل ، وهو أن طاليس كان من الذكاء بحيث أدرك أن المناهج أثمن من الحلول الفردية ، وأن المناهج تتطلب المبادئ ، أو كما نقول فى الهندسة النظريات .

وموضوع آخر لا تنتهى المناقشة فيه وهو : أكان طاليس حقًّا أول مهندس (بالمعنى العلمى) ، أم أن المصريين سبقوه فى ذلك ؟ وتثير المناقشة كثيراً من الأمور غير اليقينية بحيث يصعب الخروج منها بنتيجة مثمرة ، فنحن لا نعرف حقًّا كيف حل المصريون أو الأيونيون مسائلهم الهندسية حلا عقليًّا . الشىء الواضح هو أن الروايات اليونانية نسبت القضايا الهندسية الأولى إلى طاليس . وكانت أعمال المصريين قد تمت منذ زمن بعيد ، فاعتمد عليها ، وفتح ما عمله وجوهًا جديدة من التقدم ، هى التى أفضت بالتدريج إلى أصول أقليدس وإلى

جميع النتائج الهندسية العجيبة فى أيامنا .

ويذهب أرسطو[٢٥] إلى أن طاليس قال : « إن فى المغناطيس نفساً لأنه يحرك الحديد » . فإذا صحت هذه الرواية كان طاليس يعرف إحدى خصائص حجر المغناطيس ، ويمكن أن يسمى بذلك مؤسس المغناطيسية . أما الرواية التى تجعل منه مؤسس الكهربا فضعيفة ونحن نؤثر إغفالها .

ولعل نجاح طاليس العملى فى ميادين الفلك والهندسة والمغناطيسية ضاعف مطامعه الفكرية ، وهو من حيث إنه أول عالم فى العالم الغربى، سبق مذهب التفاؤل المتطرف الذى ساد بين علماء الطبيعة فى العصر الفكتورى . لم يقنع بتعقيل الهندسة العملية ، بل أراد أن يفسر العالم نفسه ، لا كما فعل الصبيانيون من السابقين عليه بالالتجاء إلى الخرافات ، بل بصيغ حسية يمكن تحقيقها . أليس من الممكن ، كما ظن ، تحديد طبيعة العالم أو مادته ؟ من أى شىء صنع العالم المادى ؟.

وتبدو النتيجة التى انتهى إليها ، وهى أن الماء هو المادة الأولى خيالية فى ظاهرها ، لكننا إذا تعمقنا النظر فيها رأيناها مقبولة . فالماء هو المادة الوحيدة التى يعرفها الإنسان بغير صعوبة فى الأحوال الثلاث : الصلبة والسائلة والغازية . ومن السهل التحقق من أن البخار الذى يخرج من القدر التى تغلى هو المادة نفسها كالماء الذى يختفى تدريجيًّا من القدر ، وأن الثلج أو الجليد الذى يجلب من الجبال يتحول ماء إذا نقل إلى مكان أدفأ . وليس من العسير ربط السحب والضباب والندى والمطر والبرد بمياه البحار والأنهار . ويبدو أن الماء يظهر فى كل مكان فى حالة أو أخرى ، أفيكون من الجرأة تصوره كذلك واقعًا فى صور خفية ؟ وفضلا عن ذلك فالحياة مستحيلة بغير ماء ، ولكن لا يكاد الماء يظهر حتى يصبح وجود الحياة محتملا ، بل تمتلئ الأرض بالحياة . ويظل الناس الذين يعيشون فى الأجواء الرطبة غير شاعرين بالضرورة البيولوجية للماء . لكن على طول شواطىء البحر المتوسط ، حيث يجف كل شىء فى الصيف ، وحيث تكون الأحوال الصحراوية أو شبه الصحراوية مألوفة إلى حد ما ، فإن

أول غيث [٢٦] رحيم يخلق شيئاً يشبه بعث الطبيعة . وهو منظر رائع لا سبيل إلى نسيانه . والخلاصة أن كثيراً من الروايات القديمة انتهت إلى النتيجة نفسها . وذهب كما ذهب هوميروس إلى أن الأرض محوطة بالأوقيانوس . ولا تتنافى آراؤه الطبيعية مع أسطورة الأوقيانوس أو الكونيات المصرية . ولعله تصور نفسه يعقل هذه الأساطير القديمة ويفسرها . وهناك كذلك احتمال آخر هو تأثره بالبابليين الذين قالوا بأن الماء هو المبدأ الأول غير المخلوق . وكانت اللفظة التى وقع عليها اختيارهم لتمثل الماء تدل فى أصلها على الصوت ، أو الصيحة العالية (وهذا يوحى بالموازنة بينها وبين الكلمة "logos" اليونانية ، ولكن ينبغى ألا نجازف فى التفسير) [٢٧] .

وعلى حين استقر اليهود على وحدة خلق الكون . استقر « الفسيولوجيون الأيونيون » الذين كان طاليس أولهم ، على وحدته المادية . وكان قول طاليس أن المادة الأصلية للكون هى الماء استنباطاً فجاً . لكنه ليس استنباطاً تعسفياً أو بغير أساس . ذلك أن طاليس انتهى بعد النظر إلى جميع الحقائق إلى أنه إذا كان ثمة مادة أولية فالماء الموجود فى كل شىء والواهب الحياة هو أليق الظنون .

سيلاحظ المؤرخون أصحاب العقلية الفلسفية باهتمام أن نبى الإسلام انتهى إلى نتيجة مماثلة بعد أكثر من اثنى عشر قرناً . إذ أوحى إليه الله تعالى بقوله : « وجعلنا من الماء كل شىء حى» [٢٨] . وليس من المستحيل أن تسرب التصور الطاليسى إلى ذهن محمد ؛ لكن ليس من الضرورى على الإطلاق أن نزعم وجود هذه الصلة . بل الأقرب إلى المعقول أن نذكر الفرص الكثيرة التى تسنت للنبى كما تسنت لطاليس لمشاهدة جدب الصحراء يوماً ، وامتلائها بالحياة بعد المطر فى الغد ، ووصل كل منهما إلى نتيجة مشابهة . ولكنهما عبرا عنها بشكل مختلف تبعاً لاختلاف مزاجهما . إذ كان محمد رسولا ونبياً (مثل سابقيه اليهود) وكان طاليس رجل علم . وأبرز طابع للعبقرية اليونانية أنه مع أن طاليس أسبق من الرسول باثنى عشر قرناً . فإن طاليس ألصق بنا .

ورواية أخيرة يحسن أن نذكر نصها عن أرسطو :

« عرف طاليس بما له من براعة فى التنجيم ، فى فصل الشتاء ، أن موسم الزيتون فى العام القادم وفير . وكان عنده قدر قليل من المال دفعه عرابين لاستئجار جميع معاصر الزيتون فى خيوس وملطية بثمن بخس ، ولم ينافسه أحد . فلما جاء وقت الحصاد ، وأقبل جميع الزراع على المعاصر دفعة واحدة ، أجرها كما يشاء ، فجمع مالا كثيراً ، وهكذا أثبت طاليس للناس كيف يمكن للفلاسفة أن يغتنوا بسهولة إذا شاءوا ، لكن مطامعهم من نوع آخر »(٢٩) .

وروى أرسطو هذه القصة بأحسن أسلوب ليبرئ سلفه ، لكنى لا أحب فكرة الفيلسوف الذى يصل إلى الثروة لمجرد بيان أنه يستطيع أن يفعل ذلك ، ويبدو فى هذا شيء من الحمق والخداع . أليس الأسهل افتراض أن طاليس عنى نفسه هذا العناء لأنه كان فى حاجة إلى المال ، وأنه أثرى لأن هذه كانت رغبته الباطنة ؟ وبهذه المناسبة نقول إن ما فعله طاليس ينبيء تماماً عن روح الأيونيين واليونانيين. واستناداً إلى شواهد أخرى إلى جانب هذه القصة عن طاليس لم يكن حكماء اليونان الأولون قديسين ينشدون الحياة الآخرة ، بل الأولى أنهم كانوا قوماً عمليين وبارعين. واشتهر اليونانيون عامة بحب المال ، وجمع كثير منهم ثروات أسرفوا فى إنفاقها(٣٠). وتصف قصة أرسطو جشع طاليس ، لكنها لا تذكر كرمه ، وهذا هو السر فى أنها لا تقنعنا . لعل حبنا إياه كان أفضل من ذلك لو أنه كان بريئاً عن الغرض ، لكن علينا أن نحاول رؤيته كما كان .

أنكسمندروس الملطى :

أنكسمندروس (٦١٠ — ٥٤٥) بن بركسياديز ، مواطن طاليس وصاحبه وهو تلميذ طاليس ، وهذه التلمذة مفهومة على معنى واسع فقط ، فلسنا نعلم أن طاليس اشتغل فعلا بالتدريس ، لكن أنكسمندروس أخذ عنه بعض التوجيه والتنبيه باعتبار أنه كان أصغر منه بما يقرب من خمسة عشر عاماً . وسنرى فيما يلى أن آراء هما اختلفت ، ومع ذلك اشتركا معاً فيما توافر لديهما من

obeikandl.com

استطلاع عميق ورغبة قوية فى تفسير طبيعة الأشياء ، على خلاف المواطنين الآخرين بملطية . وبهذا المعنى وحده يكون من الصحيح أن أنكسمندروس بدأ من حيث انتهى طاليس . لكن بهذا المعنى وحده . وكتب أنكسمندروس فى أواخر حياته بحثاً « فى الطبيعة » ، وهو أول بحث فى الفلسفة الطبيعية فى تاريخ الفكر البشرى . وظل هذا البحث فى متناول المعنيين بالفلسفة حتى زمن أبولودورس الأثينى (القرن الثانى قبل الميلاد) لكن سطوراً قليلة جداً منه هى التى وصلت إلينا . وقبل مناقشة فلسفة أنكسمندروس أو مذهبه فى الفسيولوجيا العامة يحسن تفسير الأعمال العلمية الواضحة التى وقف حياته على إنجازها .

وأفضل الأعمال العلمية التى قام عليها أنكسمندروس فى ميدان الفلك ، وذلك بآلة واحدة هى المزولة . واسمها فى اليونانية (gnomon) . وكان اختراع هذه الآلة فى بابل ومصر ، لكنها من البساطة بحيث يمكن أن يكون طاليس أو أنكسمندروس أو بعض اليونان الأوائل أعاد اختراعها . والمزولة عصا أو عود مستقيم يغرس رأسياً فى الأرض . ويستطيع الإنسان أن يستعمل عموداً يبنى لذلك الغرض أو غيره . ولو أن مسلات المصريين بنيت بعيدة بعداً كافياً عن غيرها من المبانى لكانت من أفضل المزاول . ويستطيع أى شخص ذكى إذا غرس رمحه فى الرمال أن يلحظ دوران ظل الرمح أثناء النهار ، وأن يرى أن الظل يختلف باختلاف دورانه . واستعمال المزولة فى أبسط صورها تنظيم لتلك التجربة العابرة . وبدلا من الرمح وضعت عصا مدرجة عمودية فى وسط سطح أفقى ، وتصقل العصا صقلا جيداً ، ويخلى المكان حولها حتى تتيسر رؤية الظل بوضوح منذ شروق الشمس إلى غروبها[٣١] . وكان فى استطاعة الفلكى (ويستحق صاحب المزولة أن يطلق عليه هذا الاسم) بفضل ملاحظة الظل على مر العام أن يرى أن الظل يبلغ حداً أدنى كل يوم (الظهر الحقيقى) وأن ذلك الحد الأدنى يختلف من يوم إلى آخر حيث يكون أقصر ما يمكن فى زمن واحد من السنة (الانقلاب الشتائى) ، وأطول ما يمكن بعد

ذلك بستة أشهر (الانقلاب الصيفى) . أضف إلى ذلك أن اتجاه الظل يدور من الغرب إلى الشرق كل يوم راسماً مروحة تختلف سعتها على مر العام.

ولا بد أن أنكسمندروس – أو أى فلكى آخر بابلى أو مصرى أو صينى أو يونانى – سأل نفسه أسئلة كثيرة ، وهو يسجل ملاحظاته يوماً بعد يوم : لماذا يستغرق نمو ظل الظهر من أقصر طول إلى أطوله ستة أشهر ، ثم تنعكس العملية ، وهكذا عاماً بعد عام ؟ وكيف نوازن بين سمت الظل وطوله ؟ ولحظ أنكسمندروس أن أقصى الاتجاهات عند الشروق (أو الغروب) تتفق مع أقصر وأطول ظل عند الظهر (أى زمن الانقلابين) ، وأنه يمكن تسجيل أقصى موضعين غرباً للظل الناشىء عن شروق الشمس فى الانقلابين ، فيكون الموضع المتوسط بين هذين الطرفين (الغرب الحقيقى) متفقاً مع الاعتداليين . ويمكن إجراء مثل هذه الملاحظات عند الغروب ، فتؤدى إلى نتيجة مماثلة تؤيد ما سبق ، وذلك لأن اتجاه ظل الغروب وقت الاعتداليين يكون موازيا ، لكنه مقابل لظل الشروق فى الأوقات نفسها .

الخلاصة أن المزولة يسرت للفلكى تحديد أطوال السنة ، واليوم ، والجهات الأربع ، والظهر ، ومنتصف النهار ، والانقلابين ، وأخيراً الاعتداليين وطول الفصول (انظر شكل ٤٦) . وهكذا يمكن الحصول إلى حد ما على طائفة كبيرة من المعلومات الدقيقة بأبسط نوع من الآلات . ويحتاج الأمر إلى بعض الخيال لتقدير ما يمكن عمله وما لا يمكن بمزولة فى زمن أنكسمندروس . الواقع أن عقولنا عودتنا منذ الطفولة أن نرى أنفسنا واقفين على كرة ، وأجسامنا القائمة متجهة نحو سمت الرأس بزاوية قائمة مع خط الاستواء . فنحن نرى بسهولة [٣٢] أن المزولة تستطيع أن تمكننا من تحديد تلك الزاوية (خط العرض) . لكن أنكسمندروس أكبر الظن لم يفكر فى ذلك . لأنه تصور الأرض كأنها قرص مسطح أو طبلة (سمكها حول ثلث القطر) ، معلقة فى الفضاء ، لكنها محوطة بالأوقيانوس وبحلقات كبيرة رأسية (شمسية وقمرية ونجمية).

ولا يمكن أن تكون فكرة خط العرض (الأرضى) خطرت بباله ، لكنه استطاع أن يدلل على تصويرنا العلمى لميل فلك البروج . والواقع أنه كان فى استطاعته ملاحظة أن الشمس تتحرك كل يوم فى مستوى ، فترسم نصف دائرة من الشرق إلى الغرب وتبلغ أعلى نقطة فيها منتصف النهار عند الظهر . ويختلف ميل ذلك المستوى بالنسبة إلى الأفق من يوم إلى يوم ، حيث يكون أصغر مايكون فى الانقلاب الشتوى (عندما يصير ظل المزولة ظهراً أطول ما يكون). ويبلغ المستوى منتصف ميله وقت الاعتدالين (عندما تشرق الشمس نحو الشرق وتغرب نحو الغرب) . ويبلغ مقدار الزاوية بين أقصى موضعين من مستوى حركة الشمس (فلك البروج) ضعف الزاوية التى نسميها ميل فلك البروج . ولعل أنكسمندروس تمكن من قياس هذه الزاوية ، لكن من الخطأ الشديد أن نقول بأنه اكتشف ميل فلك البروج (أى الزاوية بين البروج وخط الاستواء) لأنه لم يكن باستطاعته أن يتصور خط الاستواء أكثر من أنه خط عرض .

ومن الواضح أن أنكسمندروس لم يترحل بين البلاد مثلماً ترحل طاليس ، ومهما يكن من شىء فلا تذكر الروايات أى رحلة له . ومع ذلك يقال إنه وضع أول خريطة للعالم حيث جعل العالم اليونانى وسط الخريطة تحيط به أجزاء من أوربا وآسيا ، ويكون الأوقيانوس الحدود الخارجية له[٣٣] وأكبر الظن أن سويداس (١٠ — ٢) كان يشير إلى تلك الخريطة حين قال عبارة « وصف خارجى هندسى » ، وهى العبارة التى أولت خطأ بأنها كتاب فى الهندسة (بالمعنى المألوف) . ويجب أن نحذر من الاصطلاحات اليونانية التى تستعمل فى لغتنا ، مثال ذلك أن لفظتى جغرافيا وهندسة أصلهما اللغوى قريب ، لكنهما تمثلان ميدانين مختلفين . ولعل خريطة أنكسمندروس يمكن أن تسمى أول محاولة فى علم قياس الأرض ، لكنها كانت بالضرورة بدائية جداً .

ننتقل الآن إلى المظهر الذى يشغل أعظم مكان فى تاريخ الفلسفة اليونانية

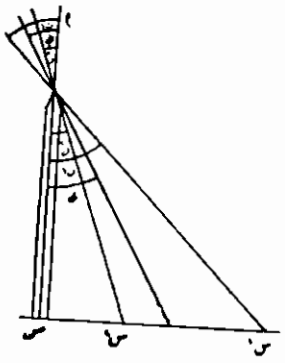

شكل (٤٦) المزولة

وهو تصوير أنكسمندروس للعالم . وأرجأنا الحديث عن ذلك إلى آخر البحث لنؤكد وضوح فكره . وعلينا أن نتخيله عالماً فلكياً يبذل أقصى ما فى وسعه لحل مسائل محدودة ، فيفلح تارة ويخفق تارة أخرى . كما هو مصير أى عالم أمين . ومع ذلك أراد أنكسمندروس أن يتعدى ذلك النطاق وأن يبسط تجربته ومعرفته ويبدى رأيه فى الكون . وشرح أنكسمندروس تلك الآراء فى الكتاب الذى دونه وهو فى الرابعة والستين من العمر ، ولعل الذى حفزه إلى هذا العمل هو اقتداؤه بمثال معاصره الأكبر منه وهو طاليس . كانت فكرة طاليس أن الماء هو المادة الأولى فى حاجة إلى كثير من التصحيح (كما بينا من قبل) . ومع ذلك كانت لها نتائج واضحة البطلان . كيف يمكن أن نفهم تحول الماء إلى أرض أو خشب أو حديد ؟ وأى مبدأ آخر يمكن اقتراحه ؟ من الواضح أنه إذا كان علينا اختيار مادة من المواد المألوفة لحواسنا ، فالماء الكائن فى كل شىء والمتغير إلى أحوال مختلفة ليس له مثيل فى أفضليته . ومع هذا لا يمكن أن يكون المادة الأولى .

وأخرج أنكسمندروس نفسه من هذا المأزق بأن لجأ إلى تجريد عقلى . إلى لفظة . ويكرر الفلاسفة ، بل بعض العلماء ، هذا العمل مرة بعد أخرى ليرضوا أنفسهم ، ويوصوا قراءهم فيما يظهر . لم يهجر أنكسمندروس فكرة

طاليس عن الوحدة المادية للطبيعة ، لكن ما دامت أى مادة محسوسة لا تصلح أن تكون مبدأ[٣٤] أوليًّا . تصور أنكسمندروس مادة ليست محسوسة سماها الأبيرون apeiron . وظهرت مناقشات كثيرة منذ عصره حتى الآن حول طبيعة الأبيرون . فاللفظة تدل على اللانهائى . أو اللامحدود . أو اللامحدد . وتدل أيضاً على اللامجرب .

وقبل أن ندلى برأينا الذى نتصوره ، يحسن أن نشرح المعالم الرئيسية فى كونيات أنكسمندروس . ولسنا فى حاجة إلى الدقة الشديدة فى اصطلاحاتنا لأن ما بقى من كتابه قليل جداً . وفى ذلك الشىء القليل من الغموض والإبهام ما يجعل شرح آرائه فى اصطلاحات دقيقة مثل وزن التراب بميزان الذهب . كان أنكسمندروس يتصور العالم هيئة فى حركة دائرية ، تقع فيها أثقل الأشياء — كالصخر والأرض — إلى أسفل مكان ، ويبقى الأخف كالماء أعلى قليلا . أما الدخان والبخار فأكثر علواً . وتلك الحركة الدائرية أزلية وهى الأصل الكلى للقوة والكون والفساد . وليست المادة الأولى وهى الأبيرون محددة لأنها بفضل قوتها الفذة كل شىء ، ويشغل الكون زماناً لا نهاية له ، ومكاناً لا حد له ، ويبدو أن أنكسمندروس ميز بين التحديد (كما هو موجود فى مادة محدودة) وبين اللاتحديد ، الذى يشبه العدم الذى نعرفه ، أو الذى لا يمكن تمييزه من غيره . مثال ذلك أننا نعرف الفرق بين البارد والحار ، واليابس والرطب ، ولكن أين الحد ؟ متى يقف الشىء عن أن يكون بارداً أو يابساً ويصبح حاراً أو رطباً ؟ ويظهر أنه استطاع كذلك أن يميز بين اللانهائى واللامحدود . إذ يعجز المرء عن بلوغ حد الشىء لأنه ليس له حد ، لأنه يرجع على نفسه كالدائرة المغلقة . ويبدو أنه عد الزمان لا نهاية له . أما المكان فلا حد له (بالمعنى الثانى مثل سطح الكرة) . ومن العبث مناقشة أفكاره مناقشة أكثر عمقاً ، لأن ذلك يجعلنا نحمل النصوص القليلة التى وصلت إلينا معانى أكثر تحديداً ودقة مما تحتمله مع ضياع باقى النص .

بقى لنا أن نذكر بإيجاز نظرية أنكسمندروس الخاصة بالحياة ، إذ ظن أن بعض الحيوانات الأولى خلقت فى الماء ، وكانت محوطة عندئذ بنوع من القشور ووجدت هذه الحيوانات فيما بعد لها مسكناً جديداً على الأرض اليابسة . فنزعت عنها أصدافها . ولاءمت بين نفسها وبين الأحوال الجديدة (لعله كان فى ذهنه الحشرات التى تخرج من اليرقات البحرية) . ولا بد أن الإنسان تطور عن غيره من الحيوانات . لأن مرحلة حضانته طويلة جداً . ويكون فى أثنائها شديد العجز . وبالجملة لم يتصور أنكسمندروس نظرية عامة عن الكون فحسب . بل كذلك نظرية عن التطور العضوى ، وهو لذلك رائد بعيد (بعيد حقاً) لداروين ولابلاس على السواء !

ويكاد يصعب علينا تصديق أن مثل هذه الأفكار ظهرت فى زمن متقدم كالقرن السادس ، ومع هذا فالمعنى العام للنصوص الموجودة بين أيدينا مما لا يمكن الخطأ فى فهمه . وربما يعترض العلماء بأن تلك الأقاويل الاعتباطية ، أو الأقاويل المستندة إلى أدلة واهية ، لا يمكن أن تدخل فى باب الأعمال العلمية ، وينبغى أن تترك للميتافيزيقيين أو الشعراء . ومما لا ريب فيه أن مثل هذه المزاعم لا يمكن اليوم قبولها ، لكن علينا أن نذكر أن أنكسمندروس ندين بها قبل أن تصاغ أغراض العلم ومناهجه ، وأعانت أفكاره على التمهيد لتلك الصياغة . لم يكن أنكسمندروس عالماً أو ميتافيزيقياً بالمعنى الحديث لهذين الاصطلاحين ، بل كان فيلسوفاً ، أو فسيولوجياً بالمعنى اليونانى . وهو أول من قرر بعض مسائل العلم الأساسية ، وأجوبته سخيفة جداً وغير ناضجة ، لكنها لم تكن فى أساسها بعيدة عن المعقول .

أنكسمنيز الملطى :

الخرف التقليد الملطى . نعنى البحث من مبدأ أول أو مادة أولى بعض الشىء بما صنعه أنكسمندروس ، ثم أعاد هذا التقليد إلى سيرته مواطنه وتلميذه

أنكسمنيز بن ايرستراتوس . وهو الذى ظهر أواخر حياة أنكسمندروس فى الأولمبياد الثالث والستين (٥٢٨ -- ٥٢٥) . ولم تصل إلينا من كتبه إلا ثلاثة نصوص قصيرة . ولا تزيد الروايات التى تؤرخ له على صفحات قليلة ، ومع هذا قد اهتم ثاوفراسطس بمذهبه أعظم اهتمام إلى حد أنه اختصه بكتاب ألفه عنه .

ولم يتفق سبيل أنكسمندروس وتصوره الميتافيزيقى للمادة الأولى وهربه من الحقيقة مع ذوق أنكسمنيز الذى حاول إعادة المذهب الطبيعى . ولم يجد الماء صالحاً لأنه محسوس جداً ، ومحدد جداً . لكن ما أمر الرياح أو الهواء الذى يتخلل كل شىء ؟[٣٥] . فالهواء محسوس إلى حد كبير (ألا يحس الإنسان بهبوب الريح؟) ومع هذا يكاد يصبح بسهولة غير محسوس . وللهواء خصائص حيوية ، لأن الناس والحيوانات لا يستطيعون العيش بغير تنفس ، وليس النفس إلا هواء . وفضلا عن ذلك يمكن أن يضغط الهواء أو ينشر إلى ما لا نهاية له . والهواء مادى جداً . ومع ذلك يميل إلى أن يصبح غير مادى . بل روحياً . وتذكر المعاجم أن المعنى الروحى للفظة بنيما pneuma لا يرجع إلى أقدم من الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة[٣٦] . ومع ذلك لا بد أن يكون هذا المعنى طرأ على ذهن أى شخص مفكر قبل ذلك بزمن طويل . لأن انتقال معنى الكلمة من الهواء إلى النفس ثم إلى الحياة والروح أمر طبيعى جداً .

فالهواء هو المادة الأولى . لكنه يتخذ جميع أنواع المظاهر بالتكاثف أو الغلظ أو بالتخلخل أو الرقة . وربط أنكسمنيز بين هذه التغيرات الكيفية وبين التغير فى الحرارة ، وأقنع نفسه بتجربة ساذجة هى أن التخلخل يزيد فى درجة الحرارة ، على حين أن التكاثف يقلل منها ، ذلك أننا حين نزفر ونفتح فمنا يكون الهواء الذى نزفره حاراً ، وحين نزفر بشفتين تكادان تنطبقان يكون الهواء بارداً[٣٧] . أما تشبيه الهواء بنفس الحياة فهو نتيجة موازنته العالم بأسره بكائن حى واحد ، مثل شخص إنسان ، فالنفس للإنسان كالرياح

للعالم ، وهذا هو الذى أدخل فكرة العالم الصغير فى مقابل العالم الكبير [٣٨] ، وهى الفكرة التى أثرت تأثيراً كبيراً فى فلسفة العصر الوسيط . ولا تزال تغرر اليوم بالمفكرين الذين لا يمحصون الآراء .

وظل أنكسمنيز يتصور الأرض وغيرها من الكواكب (بما فيها الشمس والقمر) كأقراص تعتمد على الهواء . لكنه كان أول فلاسفة اليونان الذين فكروا فى أن النجوم موضوعة فى فلك يدور ، مما يدل على احتفاظه بفكرة الدوران الأزلى عند أنكسمندروس . والكواكب معلقة بحرية ، لكن النجوم متصلة بالفلك كالمسامير . ورفض أنكسمنيز فكرة (المصريين) أن النجوم ، والكواكب تمر تحت الأرض ، وزعم أنها تدور كما تدور القبعة حول الرأس ، وهى تختفى عن نظرنا عندما تمر خلف جبال موجودة فى طرف العالم .

ويقوم جوهر فلسفة أنكسمنيز على القول مرة أخرى بالوحدة المادية للطبيعة وإيثاره الهواء مادة أولى ، وتفسيره جميع عوارض الطبيعة بتكاثف تلك المادة وتخلخلها . ويشبه الانتظام الكبير للكون بعض الشبه انتظام التنفس فى حياتنا .

ومن خصائص العقلية الملطية فى « الفلسفة الطبيعة » أن فروض أنكسمنيز كانت مفضلة على صاحبه أنكسمندروس ، وأن آراءه عدت ذروة التفكير السابق الذى غاب فى مجاهل النسيان وأصبحت الفلسفة الملطية تعنى فلسفة أنكسمنيز . وسنعود إلى هذه المسألة مرة أخرى عندما نبحث فيلسوفاً أيونياً متأخراً ، وهو آخرهم ، نعنى أنكساجوراس الكلازومينى (القرن الخامس قبل الميلاد) .

كليوستراتوس التنيدى :

نستطيع الآن أن ننتقل عن الفسيولوجيين المنسوبين إلى ملطية . بل عن ملطية نفسها ، على أنه ينبغى أن نظل قريبين من الشاطىء الآسيوى . ومن الواضح أن طاليس وأنكسمندروس وأنكسمنيز جميعاً عنوا بعلم الفلك . ولعل

هذه العناية جاءت عفواً ، لأن الظواهر المشاهدة كل ليلة فى السماء من الوضوح وقوة التأثير بحيث تبعث فضول المفكرين . ومن المحتمل جداً مع هذا أن تكون المنابع الشرقية زادت فى تحريك فضولهم . ذلك أن البحارة والتجار الذين وفدوا إلى ملطية . كانوا يجلبون معهم أفكاراً بابلية ومصرية . وسبق لنا أن ذكرنا بعض الأمثلة على مثل هذا الانتقال ، ونذكر هنا مثالين آخرين .

عاش كليوستراتوس فى تنيدوس لا فى ملطية . وهى جزيرة صغيرة قريبة من طروادة . عند مدخل بحر مرمرة . وتذهب الرواية إلى أن طاليس توفى فى تنيدوس . فلا يبعد أن يكون كليوستراتوس تلقى التعاليم الملطية فى موطنه الجزرى ، إما من المعلم الأول أو من بعض تلاميذه . ولا ريب أنه لم يصعب عليه أن يحصل على هذه التعاليم ، ولو كانت هذه الرواية باطلة ؛ لأن تنيدوس لا تبعد كثيراً عن أيونية ، ولابد أنها كانت معروفة للرحالة الملطيين الذاهبين فى طريقهم إلى البحر الأسود . وسبق لنا أن عرفنا أن أنكسمندروس كان على شىء من العلم بما نسميه ميل فلك البروج . ويقول بلينى [٣٩] إن أنكسمندروس اكتشف ذلك الميل فى الأولمبياد الثامن والخمسين (٥٤٨ - ٥٤٥) . أى فى أواخر حياته . والمعروف أن طاليس عاش إلى ما يقرب من ذلك العصر ، ويمكن أن يعد اكتشاف ميل فلك البروج ذروة ما بلغه علم الفلك الأيونى القديم . وبعد ذلك بقليل ، (حوالى عام ٥٢٠) استطاع كليوستراتوس ، بفضل مشاهداته الفلكية فى تنيدوس ومحاولاته تحديد زمن الانقلابين بالضبط ، أن يدرك صور البروج . وبخاصة الحمل والقوس . والبروج منطقة وهمية فى السماء على جانبى فلك البروج [٤٠] وعرفها الفلكيون فى بابل قبل ذلك بألف عام . الواقع أنه من المستحيل رؤية مسارات القمر والكواكب أثناء أى مدة من الزمن دون أن يدرك الرائى أن هذه الأجرام السماوية تسير فى منطقة ضيقة نسبياً . وأنها ليست بعيدة من جهة خط العرض عن الشمس (أو كما نقول عن فلك البروج) . وأكبر الظن أن ما فعله كليوستراتوس هو الاهتداء إلى

مجموعة البروج التى تمر خلالها الشمس والقمر والكواكب فى أثناء السنة ، ولعله قسم هذه البروج إلى اثنى عشرة مسافة متساوية من ميل فلك البروج ، وهى « الصور » الاثنتا عشرة للبروج[٤١]. ربما وصف كليوستراتوس هذه البروج. ولعله وصف كذلك غيرها ، وبين شروقها وغروبها ، فى قصيدته المفقودة عن النجوم astrologia.

وينسب إليه كشف آخر ، هو دورة فلكية من ثمانية أعوام ، وهى مدة تشتمل على عدد من الأيام والشهور القمرية والسنوات الشمسية.

٣٦٥ ¼ يوماً × ٨ = ٢٩٢٢ يوماً = ٩٩ شهراً.

وكانت هذه الدورة معروفة كذلك للبابليين . ولعل كليوستراتوس أخذها عنهم ، أو أن تحديدهم للشهور والسنين يسر له إعادة كشفها. ولم تكن هذه الدورة إلا أولى دورات أخرى متعددة اكتشفها الفلكيون اليونانيون بين فنية وأخرى لخدمة أغراض التقويم.

ولا يمكن أن نكون على يقين فى مثل هذه الأمور ، لكن ميزان الاحتمالات يرجح كفة الفرض القائل بأن فلك الأيونيين بوجه عام ، وفلك كليوستراتوس بوجه خاص ، تأثر بما سبقه ووصل إليه من المعارف البابلية ، ولا ينقص هذا من أعمال كليوستراتوس ، فهو أحد مؤسسى علم الفلك عند اليونان . انظر :

J.K. Fotheringham, "Cleostratus," J. Hellenic Studies 39, 164-184 (1919); 40, 208-209 (1920) Isis 5, 203 (1923).

E. J. Webb, "Cleostratus redivivus," J. Hellenic Studies 41, 70-85 (1921) Isis 5, 490 (1923).

زينوفان القولوفونى :

كانت مدينة قولوفون التى نشأ فيها زينوفان إحدى المدن الأيونية الاثنتى عشرة ، واشتهرت بسوقها العامرة ، لكنها تعرضت كثيراً لنهب الغزاة الأجانب وهجمات القراصنة . ولما فتحها قورش آثر زينوفان أن يهجرها ، وأنفق بقية حياته

متجولا . ويقال إنه رحل سبعة وستين عامًا . ولعله زار مصر مما يعين على معرفة السر فى بعض آرائه ، لكن الروايات لا تشير إلا إلى رحلته غرباً إلى صقلية . فزار زانكل (= مسينا) وكتانيا ، واستقر مدة فى إيليا الواقعة على الشاطىء الغربى من لوكانيا [٤٢] . وعلينا أن نلاحظ أنه يجتاز بنا نوعين من الحدود . فنحن نصحبه من القرن السادس إلى القرن الخامس (عاش بين عام ٥٧٠ - ٤٧٠) ومن بحر إيجة إلى بحر تيرانيا . أو من شرق البحر المتوسط إلى غربه .

وأغرب آراء زينوفان نوع من التوحيد أو وحدة الوجود ، وهى أكبر الظن آراء من أصل مصرى . وعلى أية حال فإن قوله : « إله واحد وأعظم إله بين الآلهة والبشر » و « الله أحد وكل شىء » و « الله علة الحركة » ، توحى بفلسفة إلهية جديدة تختلف اختلافًا جوهريًا عن الفسيولوجيا الأيونية وفلسفتها الوضعية نسبيًا . ومع هذا تأثر زينوفان بجيرانه الملطيين ، مما يبدو فى أروع النصوص المنسوبة إليه . والتى يجدر أن ننقلها بتمامها :

« وقال زينوفان إنه كان يوجد امتزاج بين الأرض والبحر ، وأن ذلك الامتزاج أخذ فى التحلل عن الرطوبة على مر الزمن . وأدلته على ذلك هى كما يأتى : تكتشف الأصداف وسط الأرض وفى الجبال . وهو يضيف إلى ذلك أنه وجدت فى محاجر سراقوسة آثار سمكة وعجول البحر ، وفى باروس وجد أثر سردينة فى قاع حجر ، وفى مالطة أجزاء من جميع أنواع الحيوانات البحرية . ثم يقول إن هذه الأشياء تولدت حين كانت جميع الأشياء فى الأصل مطمورة فى الطين ، وإن آثار بعضها جفت فى الطين . وإن جميع البشر هلكوا حين اندفعت الأرض نحو البحر وتحولت إلى طين ، ثم ولدت الكون مرة أخرى ، وحدث هذا التغيير لجميع العوالم » [٤٣] .

هذا كلام مدهش ، على أساسه نستطيع أن نسمى زينوفان أول جيولوجى وأول عالم بالحفريات ، فإذا اعترض معترض وقال إننا لم نعرف النص إلا من رواية متأخرة منسوبة إلى هيبوليتوس ، وأن أصالته من أجل ذلك بعيدة عن الثقة ، فليس

لدينا إلا قليل نذكره فى الدفاع عنه . ومع هذا فلماذا يكون هيبوليتوس اخترع هذا النص ؟ لن يكسب شيئًا من ذلك. ثم إن الرواية أدعى إلى إثارة الدهشة فى القرن الثالث الميلادى ، لأن ذلك القرن ، فى أيونية على أقل تقدير ، كان عصر حرية ومغامرة غير مألوفتين ، أى عصراً ذهبيًا . ولا ريب أن هذه الأقاويل كانت غريبة لصدورها من فم زينوفان . لكنها ليست أكثر غرابة مما ينسب إلى كثيرين غيره ، أمثال طاليس وأنكسمندروس وأنكسمنيز . الخلاصة أن العلم اليونانى بدأ بطريقة عجيبة على طول شاطئ أيونية . وكان الفسيولوجيون الأيونيون أجدر خلف للهوميريين .

مرحلة مصرية . نخاو ملك مصر (٦٠٩ / ٥٩٣) :

حاولنا فى الأقسام السابقة على هذا الفصل أن نعالل مولد العلم اليونانى فى أيونية . ولا ينبغى أن ينخدع القارئ بسرعة ما أوردناه من هذه القصة ، لأن نمو ما يمكن أن نسميه بالمدرسة الملطية (أو الأيونية) استغرق قرناً من الزمان . إذ ولد طاليس وأنكسمندروس فى الربع الأخير من القرن السابع ، وتوفى زينوفان فى الثلث الأول من القرن الخامس . واهتم القوم الذين نتحدث عنهم بالفسيولوجيا ، أى علم الطبيعة وعلم الحياة ، وعلم الفلك . أو « فلسفة الطبيعة » . وعلينا قبل شرح نوع آخر من ملامح العلم الملطى — أى نمو الفكر الجغرافى — أن نرجع لحظة إلى مصر ، وأن نتحرك إلى الوراء قرناً من الزمان أو نحو ذلك لنبلغ أول العصر الذى تحدثنا عنه فى هذا الفصل .

استمرت الأسرة الخامسة (أو الأسرة الحبشية) فى مصر نصف قرن . ثم سقطت عام ٦٦٣ [٤٤] ، إذ انهزم آخر ملوك الحبشة على يد آشور بنيبال (ملك آشور ٦٦٨–٦٢٦) ، وأصبحت مصر بأسرها لبضعة أشهر إقليمًا آشوريًا . ثم نجح أحد الحكام الوطنيين ، وهو ابسماتيك بن نخلو من مدينة صا الحجر ، فى إعادة نوع من الوحدة الوطنية ، وحرر البلاد من ربقة الآشوريين بمساعدة الجنود المرتزقة من اليونانيين والكاريين « ذوى الدروع النحاسية »[٤٥] . وأسس ابسماتيك الأسرة

السادسة والعشرين (أو الصائية) . وكان حاكماً قوياً وقادراً . وأسرته آخر أسرة وطنية . وعصرها يمتاز بنهضة واضحة ، لأن ابسماتيك استمد نماذجه (فى الدين ، والفن ، والنقوش) من العصور الكلاسيكية للدولتين القديمة والوسطى ، حين بلغت عظمة مصر ذروتها . ولم تستمر هذه النهضة طويلا (١٣٨ سنة فقط . أى أنها لا تكاد تبلغ أربعة أو خمسة أجيال) لأنها كانت مصطنعة . واستطاع ابسماتيك أن يبعث ازدهاراً اعتمد على حماية المرتزقة من الجند الأجانب ، وعلى براعة التجار الأجانب . وكانت النزعة الوطنية الشديدة فى ذلك الزمان مرتبطة ارتباطاً غريباً بالضعف الحربى . وعلى الرغم من بهاء مظهر دولة سايس . فإنها كانت فى أساسها مزعزعة. ولم يكد يظهر قمبيز على أبواب بلوز [٤٦] عام ٥٢٥ حتى سقطت كأنها بيت من الورق .

وكانت غلطة ابسماتيك أنه رفع من شأن الثقافة على القوة . وركز كل جهوده فى تنمية فنون السلم تحت أبصار جيران من ذوى العدوان والجشع ، فأصلح طرق الرى فى الدلتا . وشجع على استقرار المستعمرات اليونانية . وأحيا التجارة ، لا مع الشعوب اليونانية المختلفة الأصل ، بل مع الكاريين والسوريين والفينيقيين واليهود ، ونشأت أحياء يونانية وكارية فى منف . وجعل ابسماتيك عاصمة ملكه صا الحجر ، وهى موطن رأسه ، وتقع على فرع النيل الغربى (فرع رشيد) . فأصبحت الدلتا هى المسيطرة على مصر .

ويرجع الفضل فى إحياء الفنون إلى حماسة ابسماتيك للآثار القديمة وغيرته الوطنية . وتشتمل متاحفنا على كثير من المخلفات البديعة من العصر الصائى . وبخاصة المخلفات المصنوعة من البرونز والفيشانى . لكن آثاراً ضخمة لم تتخلف عن ذلك العصر [٤٧] لأن أمراء الدلتا بنوا مساكنهم أكبر الظن بالطين لا بالحجر . فزالت آثارهم بسبب ذلك . وكان ابسماتيك وخلفاؤه يشجعون الكتبة على نسخ الكتب القديمة الخاصة ببلادهم . ووصل إلينا كثير من هذه النسخ وهى المعروفة بالديموطيقية

(أى الشعبية) . ولم يكن من المستطاع إحياء جميع الآلهة القديمة . لكن أوزيريس وإيزيس أصبحا الإلهين المحبوبين ، كما تم تأليه امحتب . وكان أثر اليونان على مصر تجاريًا وماديًا . أما أثر مصر على اليونان فكان على العكس روحيًا . ويرجع اهتمام اليونان بآلهة مصر ، وبخاصة أولئك الذين ذكرناهم الآن ، إلى هذا العصر الذى توافرت فيه سبل التجاوب بين اليونان ومصر . ونحن نجد لهذا الأثر المصرى مثالا صغيراً غريباً يضربه لنا طاغية كورنثة بريانذروس (حكم من ٦٢٥ إلى ٥٨٥) الذى سمى ابن أخيه وخليفته بسامتيخوس أو بساميس ، وهما صيغتان يونانيتان للاسم المصرى إبسماتيك . ولعلنا نذكر أن بريانذروس كان أحد الحكماء السبعة . ولهذا التوقير عن لسانه لمصر دلالة لا يستهان بها .

ولنرجع إلى الفرعون إبسماتيك الذى خلفه على العرش ابنه نخاو سنة ٦٠٩ ، وأكبر الظن أن نخاو تأثر تأثراً شديداً بعظمة المملكة التى ورثها كما بهره مافيها من جمال إلى درجة أنه لم يتصور ضعفها وزعزعتها . وفى تلك الأثناء كان الآشوريون منغمسين فى صراع مرير ضد البابليين والميديين . فانتهز نخاو الخطر العظيم الذى يهددهم واعتمد على المرتزقة من جند اليونان وغزا فلسطين سنة ٦٠٩ . فانتصر على جوزيا (ملك يهوذا ٦٣٨ — ٦٠٩) فى واقعة مجدو . لكنه انهزم بعد أربع سنين عند قرقميش الواقعة على الفرات على يد بختنصر (ملك بابل ٦٠٤ — ٥٦٢) وفقد بذلك جميع الأراضى التى سبق له أن فتحها فى آسيا[٤٨] . على أن نخاو أرسل بعد انتصاره فى مجدو إلى البرنخيديين[٤٩] الساكنين قرب ماطية . وطلب إليهم أن يهبوا الملابس التى لبسها يوم ذلك النصر إلى أبولون . ومن هذا يتضح أننا لا نزال قريبين فى بحثنا هذا من تلك المدينة . وأن المصريين احترموا آلهة اليونان ، على حين عبد اليونان إيزيس وأوزيريس .

وفى القدر الذى ذكرناه عن نخاو ما يكفى لأن يجذب انتباه مؤرخ التطور الفكرى . ألم يؤسس هذا الفرعون روابط الاتحاد بين مصر واليونان وإسرائيل والكلدانيين ؟ ومع ذلك فلدينا من الأسباب المباشرة ما يجعلنا أكثر اهتماماً به .

وهى أنه أتم عملين جغرافيين ينبغى لمؤرخ الجغرافيا أن يدخلهما فى حسابه .

أولها تكملة حفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر . ذلك أن قناة قديمة سبق حفرها زمن الدولة الوسطى (٢١٦٠ – ١٧٨٨) بين بوبسطة الواقعة على الفرع التنيسى للنيل وبين بحيرة التمساح ، فأعاد نخاو حفر تلك القناة ومدها إلى البحيرات المرة وخليج السويس (بحر القلزم) بحيث أضحت تتسع لمرور سفينتين حربيتين ، وبلغ طول هذه القناة (من بوبسطة أكبر ظنى) أربعة أيام ملاحة . ويخبرنا هيرودوت الذى ندين له بمعظم معلوماتنا عن هذا الموضوع أن ١٢٠,٠٠٠ مصرى هلكوا فى هذا العمل الذى اضطروا إلى هجره قبل تمامه [٥٠] . فلماذا هجر ؟ يذهب هيرودوت إلى أن وحياً نزل منذراً بوقوع شر من ناحية البرابرة (أى الأجانب وتحقق ذلك الشر فى القرن التالى) . أما ديودور الصقلى (بين القرنين الأول والثانى قبل الميلاد) فيذهب إلى أن مهندسى نخاو اكتشفوا أن البحر الأحمر أعلى من الدلتا فخشوا أن يغرقها الماء الملح . ولعل مرجع السبب الأساسى هو الصعوبة المتزايدة فى الحصول على العمال والإمدادات ، ثم أكمل دارا (ملك الفرس ومصر ٥٢١ – ٤٨٦) حفر هذه القناة بعد قرن من الزمان ، لكن نخاو جدير بالمدح لأنه أدرك الحاجة إلى مواصلة بين البحرين الأحمر والمتوسط او أسعده الحظ بإتمامها لضاعف فى رفاهية مملكته ، ولو أن ذلك تم مانجت مصر . بل لازداد جشع جيرانها ولتضاعف عليها الخطر من ناحيتهم .

أما العمل الثانى فهو أن نخاو لاهتمامه بتنمية التجارة الخارجية أمر السفن الفينيقية بالإبحار حول ليبيا (حول إفريقية) . والفكرة طبيعية على الأقل عند اليونان ؛ لاعتقادهم بوجود أوقيانوس يحيط بالأرض . ومع هذا كان تنفيذها فى حاجة إلى خيال خارق وشجاعة مما اتصف به نخاو . وتعد رواية هيرودوت لهذا العمل فى غاية الوضوح . وهى من الإيجاز بحيث لن نفعل خيراً من إيرادها :

« يتضح جلياً أن ليبيا محوطة بالبحر فيما عدا جهة حدودها الآسيوية ،

obeikandi.com

وأول من أثبت ذلك (فيما نعرف) هو نخاو ملك مصر ، ذلك أنه بعد أن انتهى من حفر القناة التى تمتد من النيل إلى خليج العرب أرسل الفينقيين فى سفن وكلفهم بالإبحار فى عودتهم من طريق أعمدة هرقل حتى يبلغوا البحر الشمالى ومنه إلى مصر . وهكذا بدأ الفينيقيون من البحر المتوسط وأبحروا فى البحر الجنوبى ، وكلما حل الخريف ألقوا مراسيهم وبذروا الأرض فى أى مكان من ليبيا يكونون فيه ثم ينتظرون حتى وقت الحصاد ، حتى إذا حصدوا الزرع أبحروا ، إلى أن انقضت سنتان ، وفى السنة الثالثة داروا حول أعمدة هرقل وبلغوا مصر . وهم يقولون (وهذا شىء يصدقه البعض ولو أننى لا أصدقه) إنهم حين كانوا مقلعين حول ليبيا كانت الشمس عن يمينهم»[٥١]

ومما يؤسف له أن هيرودوت لم يتوسع فى تفصيل أكثر ، لكن روايته بحالتها المذكورة توحى بالثقة ، والحقيقة التى لم يستطع هو تصديقها هى التى تؤيد قصته ، ذلك لأن الفينيقيين حين أبحروا غربًا حول رأس الرجاء الصالح كانت الشمس دائمًا فى الشمال ، أى عن شمالهم[٥٢] .

الخلاصة أن نخاو كان من كثير من الوجوه ملكًا عظيماً ، وسبق لنا أن رأينا برياندروس يعجب بأبيه ، أما هو فأعجب به حكيم آخر من أعظم الحكماء شهرة وهو سولون الأثينى (القرن السادس قبل الميلاد) الذى درس شرائع نخاو عندما زار مصر ، وأدخل بعضها بعد عودته فى القانون الأثينى الجديد ، أما الضعف الأصيل فى المملكة الصائية فلم يلبث أن ازداد ، لكن نخاو استطاع أن يدرأ العاصفة . وسبق لنا أن ذكرنا اسم آخر ملوك أسرته وهو أحمس الثانى الذى بلغ نفوذ التجار اليونان أثناء حكمه (٥٦٩ — ٥٢٥) إلى الحد الذى سمح لهم ببناء أو إعادة تخطيط مدينة نقراطيس الواقعة على الفرع الكانوبى للنيل على بعد قريب غرب العاصمة ، أى صا الحجر . وأصبحت نقراطيس[٥٣] المركز الرئيسى للتجارة اليونانية فى مصر (وتشبه بعض الشبه الإسكندرية أواخر أيام البطالمة) . وكان معبدها الرئيسى . والمسمى بحق هلينيون[٥٤] ، مزيناً بهدايا من مدن كثيرة أيونية ودورية وأيولية .

وهذا فضلا عن أن بعض المدن الأيونية مثل ملطية كانت لها معابدها الخاصة . وكان أحمس الثانى يبعث بهدايا كبيرة للمعابد اليونانية فى أوربا وآسيا . كما أنشأ حلفاً مع الطاغية القوى بوليقراطيس الساموسى ، الذى بلغ من حسن الحظ وماضرب به المثل . ومع هذا مات مصلوباً سنة ٥٢٢ . وفى الوقت نفسه ازداد الخطر ازدياداً عظيماً فى الشرق بظهور قورش مؤسس الإمبراطورية الفارسية. وهزم قورش قارون سنة٥٤٦ والبابليين سنة٥٣٩ . ومات سنة٥٢٩ . وعاش أحمس الثانى حتى عام٥٢٥ . وفى هذه السنة نفسها اندحر ابنه إبسماتيك الثالث على يد قمبيز بن قورش . وكانت هذه هى نهاية مصر المستقلة التى كانت من ناحية أخرى فقدت استقلالها . لأن الدولة الصائية كانت يونانية فى كثير من الوجوه . بل تبدو أسرة إبسماتيك كلها (٦٦٣ — ٥٢٥) كأنها طليعة للبطالمة الذين جاءوا بعد ذلك بعدة قرون (٣٣٢ — ٣٣٠) .

وفى أثناء ذلك العصر (من القرن السابع إلى السادس) تعرض الشرق الأدنى لا ضطراب عميق لا ينقطع . ذلك أن عناصره المتعددة — من يونانيين وآسيويين وأفريقيين — أخذت تختلط بعضها فى بعض مرة بعد مرة . وكان الهياج الرئيسى أيونيا لكنه كان مقتدياً بمثال المصريين والبابليين . ولا تكفى الصلات الطبيعية بغير مودة وتفاهم ، وقد بلغت المودة بين المصريين واليونانيين حداً أثمر نتائجه على كلا الشعبين . أما التأثير المصرى فإنه مع الأسف على الرغم من انتشاره (كانت الصلات الضرورية متوافرة) لم يستطع أن يضرب فى الأعماق لأن الكتابات الديموطيقية كانت أقل من الهيروغليفية يسراً فى قراءتها وأكثر تحريفاً . ولابد أن اليونان واليهود قد التقوا فى فلسطين وغيرها ، ولكن لم يكن بينهم من المودة ما ينتهى إلى تبادل الإعجاب والتنافس . ونستطيع أن نكشف عن آثار مصرية كثيرة فى الفن[٥٥] والأدب والعلم اليونانى . ولا نكاد نجد أى أثر يهودى . لقد استقل نخبة اليهود وخلاصة الإغريق بتحقيق أغراضهم الخاصة . بل لم يكن من الممكن أن يجتمعوا فى ملطية أو فى نقراطيس ، كما فعلوا بعد قرنين أو ثلاثة فى الإسكندرية .

هيكاتايوس الملطى ، أبو الجغرافيا :

على فرض أن الرحلة البحرية التى أمر بها نخاو حول أفريقية تمت ، فلا بد أن انتشرت أخبار ذلك الحادث الخارق بين الفينقيين ، وأن تسربت هذه الأخبار عن طريقهم إلى الملطيين مباشرة أو عن طريق الضباط المصريين فى بلاط سايس . وإذا كان ذلك الحادث لم يقع بالفعل ، فإنا على ثقة من أن البحارة اليونانيين والفينيقيين رووا قصصاً أخرى . والمعروف أن سفن ملطية طوفت كثيراً بموانى البحر المتوسط والبحر الأسود ، وجمعت السلع والأخبار من كل نوع . وأجدر المعلومات بالجمع ما يمكن أن نسميه المعلومات الجغرافية على أوسع معنى (الجغرافية البشرية) وكان موقع ملطية فى القرن السادس محطة تجارية جغرافية ، يشبه ما كانت عليه ثغور البرتغال عشرين قرناً بعد ذلك . ولا ريب فى أن المعلومات لا يؤمن على حفظها وترتيبها وصياغتها إلا إذا قام بهذا العمل شخص ذو مقدرة فائقة ، وأقام نفسه مسئولا عنها . وكما يعزى نجاح ساجريس إلى عبقرية هنرى الملاح وتفانيه ، كذلك جمع هيكاتايوس المعارف الجغرافية والبشرية التى أمكنه الحصول عليها فى ملطية ، واستفاد منها .

وينسب هيكاتايوس بن هيجساندروس إلى أسرة قديمة فى ملطية ، ويقع مولده فى منتصف القرن أى ما يقرب من زمان الفتح الفارسى ، فنشأ بذلك رعية من رعايا الفرس . وأكبر الظن أن أسرته أظهرت استعداداً «للتعاون» مع الفرس والمشاركة فى نعمتهم ، غير أن العامة كانوا أقل استعداداً للتعاون ، فلم يكد القرن يشرف على النهاية حتى امتلأ الجو بأفكار الثورة . وسعى هيكاتايوس عبثاً إلى تجنب الثورة ، حتى إذا أصبح لا مناص من الحرب أدرك أن نجاة بنى وطنه لا تتم إلا بخطة شديدة الجرأة . لكنهم رفضوا نصيحته فى الحالين لأنهم عدوه شديد الجبن فى النصيحة الأولى وشديد التهور فى الثانية ، وانتهى الأمر بتدمير ملطية عام ٤٩٤ . وامتد عمر

هيكاتايوس حتى شهد معركة ميكال سنة ٤٧٩ وأيام تحرير بلاده[٥٦] ، ومات عام ٤٧٥ .

ويقال إنه ترحل كثيراً ، وأكبر الظن أن رحلاته تمت حول نهاية القرن حين كان وجوده فى موطنه غير مرغوب فيه من الشعب . ويذهب هيرودوت إلى أنه لم يزر مصر فحسب ، بل تنقل فيها جنوباً حتى بلغ طيبة . ومما سهل هذه الزيارة أن مصر بعد سنة ٥٢٥ غدت إقليماً فارسياً ، وأن هيكاتايوس رعية من رعايا الفرس ينتقل من إقليم فى الإمبراطورية الفارسية إلى إقليم آخر .

وينسب إليه تأليفان : أحدهما تاريخى يسمى كتاب الأنساب والآخر جغرافى عنوانه « وصف الأرض » أو « الجغرافية الوصفية » . والكتابان مفقودان ولا نعرف منهما سوى ما يقرب من ٣٨٠ قطعة معظمها قصير جداً . ومعرفتنا بالكتاب الأول أقل من معرفتنا بالكتاب الثانى ، وأهميته كذلك أقل من أهمية أخيه ، لكن لعلنا نقف لحظة لننظر فى بدايته التى حفظها ديمتريوس الفاليرى[٥٧] ونصها : « يقول هيكاتايوس الملطى : دونت هذه الأمور لأنها تبدو لى حقيقية أما أقاويل اليونان فكثيرة وهى فيما أظن تخيلات »[٥٨] . ويجب أن نذكر أن هذه العبارات كانت بديلا عن العنوان ، ولعلها استهدفت كذلك أن تحل محل العنوان الظاهر على الغلاف الذى يضعه الناسخ المشتغل بهذه الصناعة ليجتذب انتباه القارئ لأول وهلة ، فلا ينبغى أن نقسو فى الحكم على هذه الأقوال .

ومعظم القطع الباقية من جغرافية هيكاتايوس وعددها ٣٣١ مأخوذة هنا من مختصر هرمولاوس للمعجم الجغرافى الذى عمله ستيفانوس البيزنطى (١ — ٧١) ولذا فهى شديدة الإيجاز ، كما هى الحال فى الاقتباسات المعجمية (وهى غالباً أقل من خمس كلمات) . ومع هذا فهى كافية فى توضيح الفكرة العامة عن الكتاب ولا بد أن هيكاتايوس سمع أيام نشأته فى ملطية جدلا حول آراء كبار الفسيولوجيين ، طاليس وأنكسمندروس وأنكسمنيز ، حول حقيقة المادة الأولى . وإذا نحن ذكرنا هنا

مزاج اليونانيين فنستطيع فى سهولة أن نتصور تلك المناقشات التى كانت بطبيعتها جدلا عقيما ولا نهاية له . وربما ثبطت عزائم شاب مطامعه أكثر تواضعاً وأكثر اهتماماً بالمحسوسات . لعل هيكاتايوس سأل نفسه وقتذاك قائلا (كما يفعل عالم صحيح) : « قبل الشروع فى حل لغز الكون لنجمع بعناية كثيراً من الأشياء التى تحيط بنا » . وأوضح الوسائل وأعظمها إغراء لتحقيق هذا السؤال هو جمع نتف المعلومات الجغرافية والبشرية التى ما برح البحارة والتجار يحملونها فى عودتهم إلى مواطنهم ملطية ، ثم ترتيبها فى نظام حسن إلى جانب مشاهداته فى رحلاته الخاصة وذكرياته عنها . وهذه أول محاولة من نوعها ، ويستحق صاحبها

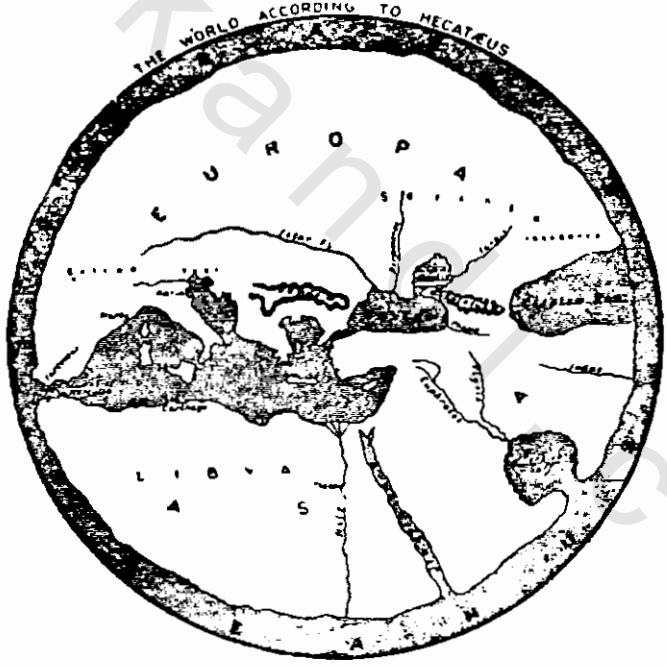

شكل (٤٧) خريطة رمزية توضح نظرة هيكاتايوس العامة للعالم المسطح (C,U,P, 1935) H.F. Tozer, History of ancient Geography وهناك خريطة أحسن إعداداً وتشتمل على أسماء هيكاتايوسيه أكثر ملحقة بكتاب كلوزين الذى يشتمل على فهرس جغرافى لهيكاتايوس (R.H. Klausen, Hecataei Milesu fragmenta, Berlin 1831).
ويختلط هذا الفهرس فى طبعة مولر بفهارس أخرى متعددة .

أن يسمى «أبو الجغرافية» . وقسم هيكاتايوس كتابه إلى قسمين رئيسيين ، وهما أوربا وآسيا (وتشمل آسيا إقليم ليبيا). ولك أن تنظر إلى الخريطة التخطيطية التى تبين ذلك التقسيم وتبرره (شكل ٤٧) ، لترى أن الأرض المسطحة تصورها هيكاتايوس مستديرة محوطة بالأوقيانوس ، ويقسمها نصفين بوجه عام البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر قزوين — النصف الأعلى أو الشمالى أوربا ، والأسفل أو الجنوبى آسيا وأفريقية[٥٩] . والخريطة تجعلنا فى غير حاجة هنا إلى وصف ملامح أخرى ، لكن عليك أن تلاحظ أن البحر المتوسط والبحر الأحمر ، والخليج الفارسى ، وبحر قزوين ، والنيل ، تتصل كلها بالأوقيانوس المحيط بالأرض ، وهذا صحيح فيما يخص البحار الثلاثة الأولى ، ولكنه خطأ فيما يخص البحر الرابع . وسنرجع إلى الحديث عن النيل بعد قليل . وكان تخطيط هيكاتايوس مقيداً إلى حد كبير بالشواطىء ، وليس هذا بالأمر الغريب لأنه تلقى معلوماته من التجار والملاحين ، ولأن المستعمرات الملطية وغيرها من المستعمرات اليونانية اقتصرت عمومًا على الموانى وقليل أو لا شىء مما وراءها من اليابسة على أن اهتمامه لم يقتصر على المدن فحسب بل تعداه إلى الناس وأنواع الحيوان . ويقول فرفريوس (النصف الثانى من القرن الثالث) إن وصف هيرودوت للعنقاء وفرس البحر والتماسيح وصيدها مستمد من هيكاتايوس[٦٠] .

هل رسم هيكاتايوس خريطة بالفعل ؟ هذا شىء محتمل جدًّا ، بل قيل إنه أضاف إلى خريطة أنكسمندروس . ويشير هيرودوت إشارة يمكن أن يفهم منها وجود خرائط كثيرة[٦١] . كما يشير فى عبارة أخرى له إلى خريطة واحدة[٦٢] وحينما تعرضت ملطية للخطر توجه أرسطاجوراس إلى إسبرطة ينشد عون ملكها كليومانس[٦٣] « فأحضر معه لوحًا برونزيًّا حفر عليه خريطة الأرض كلها ، وجميع البحار ، وجميع الأنهار » . حدث ذلك فى زمن هيكاتايوس . ولعله رأى تلك الخريطة البرونزية — ولعله هو الذى رسمها .

بقيت كلمة عن النيل ، وهى أن اليونان لم يملكوا فى زيارتهم إلا أن يتساءلوا عن أعظم أعجوبة فى تلك البلاد . أى نهر النيل . ولا غرابة فى أن يلحظ الأيونيون

مظهراً من المظاهر الهامة وهو تكوين الدلتا الشاسعة ، وذلك بسبب تجربتهم الخاصة الضيقة النطاق ، مثل طمى نهر الميائدروس . واستعصت على أفهامهم مظاهر أخرى . ومنها لماذا يفيض النيل صيفاً فيغمر البلاد على حين تكون أنهار اليونان جافة ؟ ويفسر هيرودوت كثيراً من الآراء اليونانية الخاصة بهذا الموضوع [٦٤] . وهو دليلنا فى هذه المسألة وغيرها من المسائل . أول هذه الآراء ، ولعله رأى طاليس ، أن فيضان النيل يرجع إلى الرياح الموسمية [٦٥] التى تمنع فيضانه إلى البحر . ويقول الرأى الثانى ، والراجح أنه رأى هيكاتايوس ، أن زيادة النهر ترجع إلى اتصاله بالأوقيانوس [٦٦] أما الرأى الثالث الذى ذهب إليه أنكساجوراس ، فهو أن فيضان النهر راجع إلى ذوبان الجليد فى جبال ليبيا ، وجاء هذا الرأى الثالث أقرب إلى الحقيقة ، ومع هذا رفضه هيرودوت كما رفض غيره من الآراء ليدلى برأيه الخاص التافه [٦٧] . وتفسير هيكاتايوس لفيضان النيل يدعو إلى الالتفات برغم خطئه الشنيع ، وهو يدل على سيطرة فكرة الأوقيانوس الهوميرى على عقله .

ونحب أن نقول إن هذا الوصف العام الذى تصوره هيكاتايوس هو فى جملته صحيح . فالقارات كما نعلم جزر واسعة تحيط بها البحار التى يسميها الجغرافيون بأسماء مختلفة حسب مواقعها ، لكن جميع البحار ليست سوى أجزاء من محيط واحد . ولو اقتصرنا على النظر إلى العالم القديم وجدنا فكرة هوميروس أدنى إلى الصواب ، لأن أوربا وآسيا وأفريقية تكون قارة واحدة يحيط بها محيط واحد . كانت النظرة الهوميرية الهيكاتوسية فى أساسها صحيحة ، لكن اليونان لم يتيسر لهم إدراك مدى تلك القارة شمالاً وشرقاً وجنوباً .

أما من الناحية النظرية فكان هيكاتايوس ضئيلا (لا يوجد أى أثر للجغرافية الرياضية فى كتابه ، أو أنه لم يصل شىء عن ذلك) ، لكن عنايته بجمع المعارف المتيسرة وتنظيمها لوصف العالم الجغرافى المحسوس فكانت خطوة حسنة فى الاتجاه الصحيح ، وهو لذلك أحد مؤسسى علم الجغرافيا .

توجد أفضل طبعة للقطع الباقية من كتاب هيكاتايوس فى :

Fragmenta historicorum Graecorum, edited by Charles and Theodore Müller of Paris (Paris, 1841), vol. I, pp. ix-xvi, 1-31, with Latin translation.

وازدادت معلوماتنا عن الجغرافية القديمة منذ عام ١٨٤١ إلى درجة تتطلب إصدار طبعة جديدة .

الفنيون اليونانيون فى القرن السادس :

معظم معرفتنا بالتكنولوجيا اليونانية فى القرن السادس ذات طبيعة أسطورية على أن لب هذه الأساطير تؤيده أحيانًا معلومات غير مباشرة ، وأحيانًا آثار باقية . أهم هذه المعلومات غير المباشرة مصرية ، لأن طرق الصناعة التى مارستها مصر لا بد أنها لفتت أنظار المستعمرين اليونانيين المستقرين فى نقراطيس أو المتجولين فى أنحاء البلاد ، ولابد أنها انتقلت إلى الجزر اليونانية بالسهولة التى انتقلت بها الأشياء التى أسهم اليونانيون فى ابتكارها . ومع هذا يصعب فى معظم الأحوال أن نقرر بصدد طريقة يونانية هل هى ابتكار أو نقل من مصر أو من غيرها ، لأنه يصعب تمييز الحد الذى يفصل بين التقليد والابتكار ، وبين التقليد الأعمى والابتكار الخالص خطوات متوسطة لا نهاية لها .

ويقدم التاريخ الأسطورى للاختراعات فى اليونان شخصية عجيبة جدًّا ، هو الأمير الأسكيذى أناخارسيس الذى وفد إلى أثينا عام ٥٩٤ ، لم يلبث أن أكسبه ذكاؤه ورقته وخفة ظله إلى جانب بساطة أحواله محبة جيرانه وعطفهم فأصبح صديق سولون وتلميذه ، وصار أحد « الحكماء السبعة » (فى غير القوائم الكثيرة التداول) . وتنسب إلى أناخارسيس حكم متعددة كما نسب إلى غيره من « الحكماء » مثال ذلك أنه وازن بين الشرائع وبين نسيج العنكبوت الذى يعوق الحشرات الصغيرة ،

ويسمح بمرور الكبيرة منها . وحمل معه عند عودته إلى موطنه عادات اليونان ودياناتهم (٦٨) . فقتله أخوه سوليوس ملك الاسكيذيين بسبب ذلك الإلحاد . ويهمنا أمر أناخارسيس من جهتين ، أولا من جهة أصله ، وثانياً من جهة استقراره فى أثينا ، وهذا يوحى بأن الأسطورة من وضع متأخر نسبياً ، إذ الأقرب إلى الطبيعى أن يتوجه « مخترع » من اسكيذيا فى سنة ٥٩٤ إلى ماطية لا إلى أثينا . ثم إن الأقرب إلى المعقول أن تحمله السفن الملطية إلى أيونية لا إلى أتيكا . وكيفما كان الأمر فهو يمتاز بأنه أول أثينى فى تاريخ العلم ، كما أنه أول اسكيذى كذلك . ولو وضعنا الأمر

VOYAGE
DU JEUNE ANACHARSIS
EN GRÈCE.
DANS LE MILIEU DU QUATRIÈME SIÈCLE
AVANT L'ÈRE VULGAIRE.
TOME PREMIER
A PARIS
Chez De Bure l'aîné, Libraire de Monsieur Frère du Roi et de la Bibliothèque du Roi et de l'Académie Royale des Inscriptions, hôtel Ferrand, rue Serpente, n°. 6
M DCC LXXXVIII
AVEC APPROBATION, ET PRIVILÈGE DU ROI.

شكل (٤٨) صحيفة العنوان فى الجزء الأول من الطبعة الأولى لرحلة أناخارسيس الصغير . طبع هذا الكتاب لأول مرة عام ١٧٨٨ من طبعتين : إحداهما فى أربعة أجزاء والثانية من ستة أجزاء . وأضيف إلى كل طبعة ذيل يشتمل على الخرائط والبرامج والمناظر والمداليات المأخوذة من بلاد الإغرايق القديمة والتى لها صلة برحلة أناخارسيس الصغير J.D. Barbié du Bocage (1760-1825) ثم ظهرت طبعات أخرى فى ١٧٨٩ – ١٧٩٠ ، ١٧٩٩ .

obeikandi.com

فى صورة أخرى فمن الغريب أن يكون أول أثينى فى بحثنا بعد سولون من اسكيذيا ، أو بتعبير حديث مع شىء من التوسع — روسيا !

ونسبت إلى أناخارسيس اختراعات كثيرة ، وهى مرساة ذات ذراعين لإرساء السفن ، ومنفاخ ، وعجلة الخزاف[٦٩] . ولا ريب أن هذه الاختراعات بالذات أقدم من القرن السادس ، بل أقدم كثيراً ، وكان اختراعها ، أكبر الظن ، فى أكثر من مكان . ولعل أناخارسيس استوردها من مصر أو من غيرها ، أو لعله اخترعها بنفسه من جديد ، أو لعله أدخل فيها تحسينات مختلفة .

وليسمح لنا القارئ بشىء من الاستطراد الذى لا يبعدنا عن هدفنا العام . وهو أن أهم عمل أثر فى نشر النزعة اليونانية فى فرنسا أواخر القرن السابع عشر هو كتاب فينلون الذى عنوانه «تيليماك» ، وعلى هذا النحو نفسه كان أفضل سبيل لنشر هذه النزعة بعد ذلك بقرن «رحلة الشاب أناخارسيس» التى ألفها الأب جان جاك برتلمى (شكل ٤٨)[٧٠] . ولا ريب أنه استلهم عنوان الكتاب من الحكيم أناخارسيس الذى تحدثنا عنه ، لأن بطل الرحلة اسكيذى . لكن الأب برتلمى جعل الرحلة فى منتصف القرن الرابع ، لأنه أراد أن يصف اليونان أثناء ذلك العصر الذهبى[٧١] ، وأنفق أكثر من ثلاثين عاماً فى تأليفها ، حتى إذا ظهر الكتاب أخيراً (باريس ١٧٨٨) لقى نجاحاً هائلا[٧٢] . وأعقبت الطبعة الأول من هذا الكتاب طبعات كثيرة ، كاملة أو مختصرة ، وتم نقله قبل نهاية القرن الثامن عشر إلى اللغات الألمانية والإيطالية والإنجليزية والدنماركية . وفى خلال العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر تم نقله إلى الهولندية والإسبانية واليونانية . بل إنه نقل إلى اللغة الأرمنية سنة ١٨٤٧ . وصدرت آخر طبعة فرنسية لهذا الكتاب سنة ١٨٩٣ ، وظلت تظهر مختصرات له بعد ذلك التاريخ ، حتى أضحت طبعات كتاب أناخارسيس تحتاج فى كل مكتبة كبيرة إلى كثير من الرفوف .

وربما يصعب على المعاصرين الذين أفسد الراديو والسينما أذواقهم أن يدركوا

السر فى شهرة « تيليماك » ، أما شهرة كتاب « رحلة أناخارسيس» فأمره عجيب غير مفهوم ، إذ هو كتاب ثقيل فى الآثار اليونانية القديمة ، يكمله أطلس فيه خرائط ولوحات . والقصة فيه ضعيفة ، وهى فى الواقع وسيلة لسلسلة لا تنتهى من المباحث عن أرض اليونان وتماثيلها ، وآثارها القديمة العامة والخاصة ، وفنونها ، وأدبها ، وفلسفتها ، وديانتها[٧٣] . غير أن القراء الفرنسيين الذين استوعبوا « دائرة المعارف الفرنسية » وكتاب بيفون «فى التاريخ الطبيعى» (والكثيرون منهم قرأوا هذين الكتابين مجلداً مجلداً وقت صدورهما) غلبت عليهم شهوة كبيرة للتعلم ، وظل اهتمامهم ببلاد اليونان يزداد خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر حتى بلغ ذروته عام ١٧٧٠ ، ثم بلغ ذروة جديدة فى عصر الثورة الفرنسية[٧٤] . ولذا يرجح نجاح كتاب برتلمى إلى حد كبير إلى ملاءمته للسنوات التى ظهر فيها .

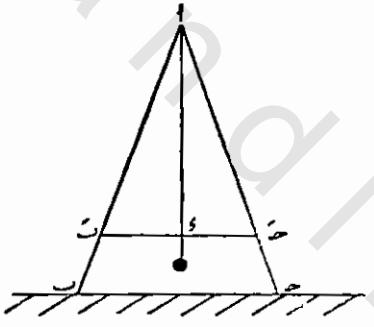

شكل (٤٩) ميزان الخيط

لنرجع إلى أيونية فى القرن السادس لنرى أن اختراع فن لحام الحديد نسب إلى جلوكوس الخيوسى ، واختراع آلات متعددة لازمة لفن البناء ، وهى ميزان الماء والزاوية والمخرطة والخابور ، إلى تيودوروس الساموسى . وتيودوروس هذا شخصية غامضة وهو ابن تليكليس ، واشتهر بأنه فنى ومهندس ومكتشف النحاس الأصفر ، وحداد ، وحفار للأحجار الكريمة[٧٥] ، وازدهر من عام ٥٥٠ إلى ٥٣٠ . واخترع تيودوروس عدة طرق لصقل الأحجار الكريمة ، ونقل صناعة سبك البرونز من مصر

إلى اليونان (راجت هذه الصناعة فى أثناء الأسرة الصائية) . وتثير جميع هذه الاختراعات ملحوظات شبيهة بتلك التى أوردناها بشأن المنفاخ وعجلة الخزاف ، والحديث عن تاريخ كل منها يبعدنا عن بحثنا . لكن لنتحدث قليلا عن ميزان الخيط ، وأكبر الظن أن الآلة التى اخترعها تيودوروس هى المسماة « ديابيتس »[٧٦] المذكورة فى الكتابات اليونانية القديمة (اسبوس) . والمبدأ الذى تقوم عليه بالغ البساطة والبراعة (شكل ٤٩) . فى المثلث أ ب حـ ، التى يحتمل أن تيودوروس صنعها من الخشب ، تساوى المسافة أب. أب١ المسافة أب ، أحـ١ على التوالى . وينصف المسافة ب١ حـ١ فى نقطة د ، وتعلق ثقالة من أ . وإذا وضع الميزان عمودياً على حجر وكان خيط الثقالة فى مقابل د، صارت الخطوط ب١ حـ١ . ب حـ ، والحجر كذلك كلها أفقية . وكانت هذه الآلة وغيرها مما يقوم على الفكرة نفسها (أى تحديد الخط الأفقى بوساطة خيط الثقالة) مستعملة عند المصريين لأغراض فلكية . ولسنا نعرف ذلك فحسب ، بل إن نموذجاً لها وجد فى مقبرة بطيبة من الأسرة العشرين وهذا النموذج محفوظ فى متحف القاهرة[٧٧] .

ولابد أن روح الابتكار الموجودة عند اليونان أو استعدادهم لاستغلال الاختراعات الأجنبية تحركت تحركاً عظيماً فى القرن السادس لمواجهة الحاجات البنائية والهندسية التى كان لا بد لهم من إتمامها ، والحاجة أم الاختراع . ومن أعظم الإنشاءات الدالة على الطموح فى ذلك العصر بناء أو إعادة بناء معبد أرطميس فى إفيسوس . ذلك أن إفيسوس ، وهى إحدى المدن الأيونية البارزة ، كانت مركز عبادة آلهة آسيوية هى آلهة الطبيعة التى سماها اليونان أرطميس . وأصبحت هذه العبادة فى القرن السادس شعبية ، وأقيم لها معبد ضخم للاحتفال بشعائرها[٧٨] . واقتضى بناء هذا المعبد حل كثير من الصعوبات المعمارية . ويذكر تيودوروس الساموسى بعض الأحيان على أنه المهندس الرئيسى ، ويقال إنه اكتشف طريقة لوضع أساسات صلبة فى أرض أفيسوس التى غمرتها المستنقعات . والواقع أن هذه المشكلة الأساسية تطلبت حلا بسبب مستنقعات إفيسوس . ولا ريب كذلك أنها

obeikandi.com

حلت . وإلا تهدم المعبد . والمعروف أنه ظل قائمًا عدة قرون . وحول منتصف القرن السادس كذلك جاء من كريت خرسيفرون الكنوسوسى لمساعدة تيودوروس على تحقيق ذلك المشروع الضخم . واخترع خرسيفرون طريقة لتحريك الأعمدة الضخمة ، وأعقبه ابنه ميتا جينس فى أعماله . وأدخل تحسينات فى طرقه[٧٩] .

وكانت جزيرة ساموس من أهم المستعمرات الأيونية . وهى تقع إلى الشمال الغربى من ملطية على مسافة غير بعيدة . واشتهر أبناؤها . أو مستوطنوها . بأنهم بناءون ومهندسون . وسبق أن ذكرنا منهم تيودوروس الساموسى . لكن أعظم مهندسيها هو يوباليتوس . وفى ذلك يقول هيرودوت :

« توسعت فى الكتابة عن الساموسيين . لأنهم أصحاب أعظم أعمال ثلاثة . يمكن رؤيتها فى أى بلد يونانى . أول هذه الأعمال القناة ذات المصبين . والمحفورة مقدار مائة وخمسين قامة فى قاعدة تل عال . ويبلغ طول القناة سبعة مقاييس طولية (أى ١٥٤٠ ياردة) . وارتفاعها ثمانى أقدام وعرضها ثمانياً . ويخرج من هذه القناة وبطولها قناة أخرى عمقها عشرون ذراعًا وعرضها ثلاث أقدام . يتدفق إليها الماء من نبع وافر . ثم يجرى فى أنابيب إلى مدينة ساموس . وصاحب تصميم هذه القناة يوباليتوس ابن نوستروفوس الميجارى . فهذا أحد الأعمال الثلاثة . أما الثانى فهو رصيف فى البحر ملاصق للميناء يبلغ عمقه عشرين قامة وأكثر من مقياسين طولا . والثالث معبد يعد أعظم ما رأيت . وأول من بناه هو روبكوس ابن فيليس الساموسى . ولهذا السبب أطنبت فى الكتابة عن ساموس على غير العادة »[٨٠] .

نشأ يوباليتوس فى ميجارا . لكن اسمه بقى بسبب قنوات المياه التى بناها فى ساموس أثناء حكم بوليقراطيس على الأغلب (عام ٥٣٠ — ٥٢٢) . واكتشف الباحثون سنة ١٨٨٢ بقايا النفق الذى وصفه هيرودوت . ويبلغ طوله ١٠٠٠ متر . و ١,٧٥ متراً فى الارتفاع وكذلك فى العرض . وفى أسفل النفق خندق تبلغ سعته ٦٠ سم . ويصل عند الطرف الجنوبى إلى عمق قدره ٨.٣ أمتار ، حيث كانت

الأنابيب الفخارية تأخذ منه الماء .

كان هذا العمل من أعظم الأعمال الهندسية . لكنه لم يكن الأول من نوعه . وبقطع النظر عن قنوات المياه فى مصر وكريت . نذكر عملا هندسيًا رائعًا تم فى أورشليم (بيت المقدس) فى عصر حزقيال (القرن الثامن قبل الميلاد) ملك اليهود من ٧١٩ إلى ٦٩٠ ، وأهم خصائصه نفق فى ساوام وهى القرية المعروفة بهذا الاسم خارج أورشليم بالقرب من الجنوب الشرقى لهذه المدينة . وهذا النفق مجرى للماء تحت الأرض يبلغ طوله أكثر من ٥٠٠ متر وشكله نصف دائرى[٨١] . والذى يدعو إلى الالتفات أن الحفر ابتدأ فى نفق سلوام وساموس من طرفى النفق فى وقت واحد ، والدليل على ذلك أن موضع الاتصال يمكن رؤيته فى النفقين ، مع العلم بأن موضع الاتصال فى الحالين ردىء من الناحية الهندسية . وهو فى نفق ساموس أكثر رداءة منه فى نفق أورشليم الذى بنى قبل ذلك بقرنين تقريبًا . لكن كيف حل مهندس حزقيال . وكيف حل يوباليوس المشكلات الرياضية التى يتطلبها هذا العمل ؟ لا نملك إلا التخمين . هل كانت عندهم آلات لقياس المساقط واختلافات السطوح ؟ مع أن المعروف أن المشكلة التى تطابها هذا العمل حلت نظريًا لأول مرة فى كتاب الانعكاس الذى ألفه هيرون الإسكندرى[٨٢] (القرنان الأول والثانى) .

ولما كان مهندس حزقيال غير معروف . فيمكن أن نقول عن يوباليوس إنه أول مهندس بلديات معروف فى التاريخ .

لنذكر الآن شيئًا عن أول مهندس للقناطر عرفه التاريخ . وهو شخص آخر من أبناء ساموس اسمه ماندروكليس . ذاع اسمه حول ٥١٤ أى جيلا بعد يوباليوس . ومصدرنا عنه هو كذلك هيرودوت[٨٣] . لكن روايته طويلة إلى الحد الذى يجعلنا نمتنع عن إيراد نصها . أما خلاصتها فهى أنه حين غزا دارا الأول (ملك الفرس ٥٢١ - ٤٨٥) بلاد الأسكيذيين (عام ٥١٤ أو قبل ذلك) أمر ماندروكليس ببناء قنطرة فوق البوسفور حتى يتمكن جيشه الضخم من العبور إلى أوربا . واستطاع ماندروكليس أن ينفذ أمره . وفى ذلك يقول هيرودوت :

« فرح دارا بهذه القنطرة المصنوعة من القوارب . وقدم ماندروكليس الساموسى هدية عظيمة من كل صنف عشرة »[٨٤] .

ومن الملحوظ هنا كثرة عدد الرجال المذكورين فى هذه الفقرات الخاصة بالفنيين اليونانيين فى القرن السادس . ولا سيما إذا ذكرنا أن معظم المهندسين وغيرهم من الفنيين عملوا دون أن يحفظ التاريخ أسماءهم ، أو على أقل تقدير ضاعت شخصياتهم فى أعمالهم . أى أن الذين استطعنا ذكر أسمائهم يمثلون عدداً كبيراً من الذين نسيهم التاريخ . ومما تجدر ملاحظته كذلك أن أولئك الذين استطعنا ذكر أسمائهم ترجع أصولهم إلى أوطان عديدة -- إسكيذيا ، وخيوس ، وكريت ، وساموس ، وميجارا . أما إسكيذيا فغريبة . لكن الأمر فى البلاد الأخرى طبيعى ، لأنها كانت مراكز للثقافة الإيجية والأيونية ، ولأن إفيسوس وساموس ، وهما المدينتان الرئيسيتان اللتان استخدمتا أولئك الرجال ، كلتاهما فى أيونية .

قدموس الملطى :

كثيراً ما يطلق على قدموس بن باندیون أنه أول مؤرخ يونانى . وكان موطنه هيكاتايوس الذى ذكرناه فى حديثنا عن الجغرافية الملطية مؤرخاً كذلك ، لكنه أصغر منه سناً بعض الشىء . والواقع ظهر نشاط قدموس حول منتصف القرن (أو سنة ٥٤٠) فى العام الذى ولد فيه هيكاتايوس . أما اسمه الفينيقى فهو دليل من الأدلة الكثيرة على امتزاج الثقافة الملطية بغيرها من الثقافات .

وبلغت أعمال الأيونيين والملطيين ، خاصة عند منتصف القرن ، حداً عظيماً يوحى بقيمة تسجيلها . لعل النعرة الوطنية المحلية هى التى أوحت بضرورة هذا التسجيل بعد غلبة الفرس على البلاد الأيونية (٥٤٦) ، إذ كان من الطبيعى أن يعمل الملطيون على شرح عظمة أمتهم للمتغلبين ، فحقق قدموس غرضهم ، وكتب بالنثر تاريخ تأسيس ملطية وتاريخ أيونية . مع أن كتابه كان كبيراً ، مقسماً إلى

أربعة أجزاء ، فإن الباقى منه لا يكاد يعد شيئًا مذكوراً .

وقام بمثل هذا العمل بعد زمن قليل (عام ٥١٠) إيوجيون الساموسى الذى كتب حوليات جزيرة ساموس التى عاش فيها [٨٥] .

وبذلك نستطيع أن نقول إن تدوين التاريخ اليونانى نشأ فى أيونية . كما نشأت فيها الفلسفة الطبيعية ، أو بعبارة أخرى إن أيونية (بالنسبة إلى اليونان) مهد التاريخ الإنسانى ، كما هى مهد التاريخ الطبيعى . أى إن الأيونيين وضعوا قواعد العلم اليونانى ، بكل ما فى هذه العبارة من معنى .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن اليونان لم ينفردوا بكتابة حوليات عن ما ضيهم . ويكفى أن نذكر دون حاجة إلى الذهاب إلى الشرق البعيد أن جيرانهم الأقربين نسبيًا ، وهم اليهود ، اشتغلوا بمثل هذا العمل . ويحتمل أن سفر القضاة وسفر الملوك دونا حول القرن السادس ، أما سفر صموئيل فهو قبل ذلك .

الأساس الدينى وما تحته من أساس خرافى :

بعد أن بلغنا نهاية الفصل الأول من الفصول الخاصة بالعلم اليونانى ينبغى أن نذكر القارئ بأن عدد العلماء وطلاب العلم فى ذلك الزمان ، كالحال فى كل زمان ، كان صغيراً جدًّا بالقياس إلى مجموع عدد المواطنين أو عامة السكان الذين كانت مهمتهم الأساسية هى الزراعة أو التجارة ، أو هذه المهنة أو تلك الصناعة . فهناك زراع ، وتجار ، وملاحون ، وموظفون من كل نوع ؛ وكهنة وسدنة للمعابد ، وشعراء ، وفنانون ، وعلماء . وهذه الطائفة الأخيرة هى أصغر الطوائف . وينبغى أن ننبه القارئ كذلك إلى الأهمية العظمى للمعتقدات الدينية ، إذ كانت تلك المعتقدات فى ذلك الزمن جوهر الحياة كما هى الآن ، وتنوعت أنغامها من أرفع أنواع الإيمان والرمزية وأصفاها إلى أغلظ أنواع الخرافة .

وهذا التنبيه الثانى ضرورى بوجه خاص ، لأن اليونانيين يمدحون غالبًا بما فيهم

من منحى عقلى ، ومن الغفلة أن نصفهم بهذه الصفة لأن هذا بالضبط كما لو مدحنا المسيحيين بقداستهم . والحقيقة أنه وجد بين المسيحيين دائمًا قلة قليلة من القديسين وكذلك أن قلة قليلة من اليونانيين هى التى أسست المذهب العقلى والعلمى . والناس بوجه عام أخيار بقدر ما تسمح لهم الأحوال المحيطة بهم ، وسلوكهم لا يخضع كثيراً للأقيسة العقلية . وينبغى أن نذكر أن المذهب العقلى والدين لا يتنافيان . على حين أن المذهب العقلى والخرافة لا يجتمعان . لكن يصعب فى بعض الأحيان بيان الحد الفاصل بين الخرافة والدين .

والفرق الأساسى بين اليونان وفلسطين مثلا أن اليونانيين لم تكن لهم كتب مقدسة تشبه العهد القديم ، ولا عقائد محدودة تقتضى خضوعهم لها أو على الأقل تسليمهم بها . وتعد القصائد الهوميرية أقرب شىء إلى الكتاب المقدس . لكن هذه القصائد لا ريب مدونات أدبية شائعة لا كتب مقدسة . ومن المعروف أن هوميروس كان يشير غالبًا إلى الآلهة . لكن هذه الإشارات عرضية مصطبغة بالتحرر الشعرى . ومع ذلك أثرت الإلياذة والأوديسية أثراً عميقًا فى الديانة اليونانية . لأنهما أعانتا على توحيد الأساطير وانتشارها العام . فضلا عن أنهما صبغتا الآلهة والأبطال بصبغة بشرية بلغت فى بعض الأحيان حدًّا يأنف معه القارئ الحديث ، لكنها لم تزعج أذن اليونانى . الذى عرف ما للآلهة من قوة عظيمة دون أن يتوقع منها أن تكون كاملة الصفات . ولم يخترع هوميروس وهسيودوس آلهة اليونان . بل جعلاهم أكثر فهمًا فى عقول الناس وقدسوا وجودهم وصفاتهم الخاصة . والواقع أن التعبيرات الوصفية الهوميرية كانت سهلة الانطباع فى الذاكرة ، ولم تلبث أن انطبعت كذلك فى كل قلب .

ويواجه مؤرخ الفكر اليونانى على الدوام نزعتين متناقضتين : النزعة الشعرية أو الأسطورية والنزعة العقلية . ويمكن أن نحكم على عمق النزعة الأولى وشعبيتها من الخصب للميثولوجيا اليونانية . أما النزعة الأخرى فكانت أقل انتشاراً ، ولو أنها لم

تقتصر أبداً على رجال العلم . فتجار اليونان كانوا ولا ريب عمليين إلى حد كبير ، ولم يجعلوا للميثولوجيا نصيباً فى أعمالهم التجارية المالية . على أن النزعتين اجتمعتا ، وليس من الضرورى اقتصار كل منهما على جماعة معينة ، إذ يسلم رجال العلم مثلا بالأساطير على أنها أوصاف شعرية لأشياء لم تخضع للتفسير العلمى .

ولم تكن حياة اليونان الدينية جامدة ، لكنها بلغت من التعقيد والتنوع مبلغاً عظيماً . وأكبر الظن أن ذلك التعقيد هو الذى أنقذهم من الدجماطيقية ومن الاستبداد الدينى ؛ ففى أول الأمر كانت آلهة محلية فى كل مدينة وفى كل دولة ، وآلهة لكل ظاهرة ولكل مناسبة ، ووصل بعض أولئك الآلهة على مر الزمن إلى مرتبة أعظم [٨٦] . ومن الواضح أن انتشار عقيدة كل إله من الآلهة يزيد أو ينقص بحسب ما يبلغه أتباعه من ازدياد أو انكماش فى القوة السياسية ، أو لأسباب أخرى كثيرة ، وربما تكتسب بعض المعابد شهرة شعبية ، وتحصل أحياناً على منزلة وطنية ، بل عالمية . ويكاد يكون من المستحيل تمييز الدوافع المتشابكة التى أفضت إلى إهمال بعض الآلهة أو نجاح بعضها الآخر ، ففى نزوات صغار الرجال من الشأن فى نهاية الأمر مثل ما يكون للخطط السياسية للعظماء . ثم إنه كلما كسبت الآلهة كياناً قومياً عاماً ، نشأت نزعة مضادة ترمى إلى إقليميتهم الخاصة مرة أخرى ، وإلى إلصاق درجات مختلفة من الأهمية بكل حادثة من حوادث ظهورهم بين الناس وبكل معبد من معابدهم [٨٧] . وبذلك ظهر ضرب من النمو والضعف فى الآلهة أشبه بمد وجزر فى قوتهم وسلطانهم .

وزخرت عقول اليونانيين بعدد كبير من الآلهة ، ومع هذا بلغ تعلقهم بالعبادة وعشقهم للأسرار حداً جعلهم ينجذبون تلقائياً نحو الآلهة الأجانب — إيزيس وأوزيريس فى مصر ، ماجنا ماتر فى فرجيا ، عشيتار الفينيقية ، وكثير غيرهم ، والعناصر المصرية والآسيوية متغلغلة فى الميثولوجيا اليونانية . ونستطيع أن نتصور بسهولة إلى أى حد ساهم المستعمرون اليونانيون فى آسيا وأفريقية فى ذلك الامتزاج الدينى ، إذ تحالفت العوامل المختلفة على إتمام ذلك التلفيق ، وأعانهم على ذلك ما هم عليه

من مخاوف وآمال ، ومحبة للمجهول والخفى ، ورغبة فى التوثيق بين الحلفاء والأجانب وما عند جيرانهم من صراحة فى اعتناق العقائد . ولما كانوا غير مقيدين بأى عقيدة أصلية واضحة (كما كانت الحال عند اليهود) ولا واقعين تحت ظلها ، لم يروا أى سبب يحول دون تمجيدهم الآلهة الأجانب ، وتقديم الضحايا أمام معابدها .

وسيطرت محبة السحر على أعماق قلوبهم ، أو على أقل تقدير لم تكن أضعف مما هى فى قلوب الرجال حتى المفكرين منهم فى جميع أنحاء العالم ، فعرفوا قوى الطبيعة المخيفة فى جميع مظاهرها حتى المعرفة (الشمس والقمر والرياح والمطر والرعد والزلازل) وشغفوا باجتلاب رضاها بالطقوس والتعاويذ المناسبة ، وابتكروا احتفالات خاصة لنجاح النسل والصحة وطول العمر والاتصال بالآلهة المخلدين والنجاة . واستطاع اليونانيون أن ينفسوا عن حياتهم الرتيبة بأعياد موسمية فى معابدهم ، وبالمباريات الرياضية والموسيقية ، والحفلات الهادئة أو الصاخبة .

ولم تتسع ديانتهم المضيافة إلى العبادات الأجنبية فحسب ، بل تلاءمت كما هى الحال دائماً بالأساطير الشعبية والاعتقاد فى الأحجار والكهوف والينابيع والأشجار بل أنواع الحيوان . ولم تبلغ عبادة الحيوان من الشيوع أو العمق مثلما بلغت فى مصر أو الهند ، لكنها كانت موجودة على كل حال ، وآية ذلك بومة أثينا ، وصقر زيوس ، وثعابين أسلقبيادس ، ورقصات الدببة لعرائس أثينا ، وبوجه خاص ديمتر السوداء الفيجالية (فى أركاديا) والتى تمثل برأس فرس . فالميثولوجيا اليونانية خليط عجيب فيه كل مثير ، لكن أصحاب الحكمة من الناس لم يقبلوه بغير كثير من التندر . وعلى حين ظل الفسيولوجيون فى ملطية يحاولون جهدهم تفسير الظواهر الطبيعية فى عبارات عقلية ، ظل جيرانهم وأبناء مدينتهم من جماهير الشعب قانعين بتفسير هذه الظواهر تفسيراً أسطوريًا وباختراع قرابين جديدة لجلب الرضا أو للتعوذ ، فضلا عن طقوس تحفظ الأشياء الحسنة بالدعوات وتهلك الأشياء الرديئة باللعنات .

وسبق لنا أن مررنا هنا بمركزين دينيين عظيمين هما : ديديما وإفيسوس ، كلاهما فى أيونية ، وهناك مراكز كثيرة غيرهما ، وأشهرها ديلوس فى السيكلاديز

ودلفى التى جعلهم موقعها وسط بلاد اليونان يعتقدون أنها سرة العالم[٨٨] .

ويرجع وجود هذه المراكز الدينية إلى الرغبة الفطرية فى التقديس والنجاة ؛ كما أنها أعانت من جهة أخرى على تقوية هذه الرغبة ونشرها . وكان اليونانيون يحبون القداسة كما كانوا يحبون الجمال ، وما أسرع أن أصدروا الفتاوى التى تتعلق بأسباب فقدانها ، والسبل المؤدية إلى حفظها ، من طقوس الطهارة ، وأساليب سؤال الآلهة وتأويل أجوبتهم . أما عشقهم الجمال والمواكب والدراما فأوحى إليهم بتنظيم الأعياد والألعاب التى حاز بعضها شهرة قومية عامة فى القرن السادس . وكانوا يحتفلون بأعياد البناثيناى[٨٩] فى أثينا منذ قديم الزمن ، وبأعياد أوليمبيا فى أوليمبيا منذ سنة ٧٧٦ وما بعدها ، وبأعياد بيثيا بالقرب من دلفى منذ ٥٨٦ ، وبأعياد إثميا فى كورنثة منذ ٥٨٢ ، وبأعياد نيميا فى أرجوس منذ ٥٧٣ . والأرجح أن التواريخ التى أوردناها وهى التواريخ التقليدية قديمة جدًّا ، لأن الناس يحبون أن يجعلوا نظمهم عميقة الجذور ، وأن يحسبوا عمد تلك النظم منذ بداياتها الصغيرة . أفليس كل ميلاد متواضعًا وغامضًا ، وكل مولود صغيراً ؟ ولم تكن تلك الأعياد تشتمل على مباريات رياضية فحسب بل على مباريات فى الموسيقى والرقص كذلك . وقامت منافسات على العزف بالقيثارة والمزمار ، والغناء بمصاحبة تلك الآلات ، وتأليف الموسيقى بألحان معينة (مثل اللحن البيثيائى وإنشاد الأشعار الهوميرية) . وأخيراً كانت تعقد أعياد الدراما وبخاصة للقطع الدرامية المخصصة للإله ديونيسوس ، وكانت لها منزلة أدبية عظيمة ، لأنها مهد الدراما اليونانية . وتلقى اليونانيون الوحى فى كثير من الأماكن المقدسة بأساليب متعددة ، ومثال ذلك وحى زيوس فى دودونا (بالقرب من بحيرة ومدينة أيونينا وأبيروس) فى حفيف الرياح بأوراق البلوط وأشجار الزان ، ووحى أبولون فى دلفى فيما يعتبرى امرأة هى نبيثة بيثيا من رعدة[٩٠] وقام سدنة المعابد على تنظيم أنواع هذا الوحى ، وربما اشتملت تنظيماتهم على قدر من التزييف الصادر عن وعى أو غير وعى ، وبخاصة إذا كان الأمر متعلقًا بالمسائل السياسية ، لكن لعل التزييف كان أقل مما يظنه معظم الناس . ذلك أنه من الحمق أن نظن أن جميع اليونانيين ؛

ما عدا الكهنة الذين كانت صناعتهم التنبؤ وتأويل الوحى ، اعتقدوا فى الوحى والتنبؤ بالغيب . أكبر الظن أن كان هناك قلة من الكهنة الساخرين المتشككة ، أو من الجشعين الفاسدين ، أما الأغلبية فكانوا صادقين مخلصين ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما استطاعت الكهانة التى قاموا على شئونها أن تؤدى وظيفتها على النسق الطيب الذى التزمته ، ولا أن تعيش ما عاشته من الزمن [٩١] . وساعدت النبوءات على توحيد الطقوس والتقاليد ، لأنها بدت فى الغالب نوعًا من التحكيم الخلقى الصادر عن ضمير بعيد عن الهوى عالى المستوى ، وهى لذلك تستطيع أن تبعث قوة فى الفرد والجماعة .

وكانت الأسرار أعظم الطقوس أثراً ، وهى احتفالات سرية للتكريس والتقدم فى مدارج التهذيب . والغرض من تلك الاحتفالات المعقدة التى كانت تقام فى مكان خفى من المعبد (مثال ذلك احتفال تلستيريون فى اليوسيس) هو إدخال نوع من الفزع فى ذهن المبتدئين الذين يكرسونهم ، فضلا عن الحماسة الدينية والعصبية [٩٢] . واشتملت الأعياد الوطنية بوجه عام على هذه الأسرار ، أو قل إن هذه الأعياد كانت وسائل شعبية للابتهاج ولممارسة الأسرار المحلية بمناسبتها (كما تتجه مراكز الحج عند المسيحيين إلى إقامة قداسات بمناسبة الحج) . فى دلفى مثلا كان أبولون ينتصر على الأفعوان المسمى بيثون ، وكانوا يحتفلون بهذا النصر موسمياً فى البيثيا [٩٣] . وكان ذلك نوعًا من الدراما المقدسة التى كان الاحتفال بها ، فى منظر طبيعى فخم مخيف ، يحرك قطعًا الانفعال الدينى إلى أقصى حد .

ويكفى أن نذكر من بين الأسرار الأخرى أسرار الأورفيكا التى كانت تكرس للبطل الشاعر الموسيقى أو رفيوس التراقى ، ويحتفل بها فى أماكن كثيرة ، والأسرار التى كانت تكرس لبلاسجيك كابيرى [٩٤] فى جزيرة ساموثراس . والأسرار التى كانت ترتبط بديمتر ويحتفل بها فى أتيكا ، وهى التسموفوريا والخاصة بالنساء فقط ، والأليوسينيا وهى للرجال والنساء على السواء فى اليوسيس عند شاطىء البحر على مسافة غير بعيدة من أثينا . ولعل الأسرار الأليوسية

أفضل أسرار معروفة تروق القارئ المثقف غير المختص بالميثولوجيا ؛ أما الأسرار المعقدة المتصلة بديمتر وبرسيفوني وتربتاوموس فهي أساطير طبيعية حقيقية تتعلق بالخصب والخلود ، وجلبها « الحكيم » ابيمنيدس إلى اليونان من كريت سنة ٥٩٦ لكن الأسرار الأليوسية وغيرها تزخر بالأفكار البلاسجية والتراقية والآسيوية والمصرية . كما لو أن جميع المعتقدات والأديان التي نشأت في البلاد المحيطة بشرق البحر المتوسط وضعت في بوتقة واحدة قروناً وآلافاً من السنين ، حتى غدت أقدس طقوس هيلاس أشبه بخلاصة ذلك المزيج وزبدته .

وأكدت الأسرار جهد المستطاع قدسية الحياة ، وزادت أثر الدين عند الإنسان عمقاً ، وضاعفت شعوره بالمشاركة مع إخوانه في أغراض الطبيعة الخفية . كانت تلك الأسرار مزيجاً من الشعر والدراما مع مذهب وحدة الوجود وعبادة الآلهة والأبطال . ثم إنها لم تضر الحكماء من الرجال والنساء ، بل طهرتهم كالحال في القداس الذي يثبت إيمان أتباع الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية ولم تكن المشاركة في الأسرار منافية بالضرورة لطالب الحق ومحبة العلم . ومن جهة أخرى كان أثرها في البسطاء مزيجاً من الخير والشر ، إذ أعانتهم على التحلي بالفضيلة ، وزادت مع ذلك في نزعاتهم الخرافية . ذلك أن الأسرار اليونانية . مثل جميع الأسرار الدينية ، ساعدت أهل الفضل أن يكونوا أكثر فضلا بالسمو بما فيهم من فطرة الخير ، كما جعلت أهل السوء أكثر سوءاً بما أضافته إلى رذائلهم من زهو ونفاق .

والخلاصة أن اليونانيين كانوا أكثر نزوعاً إلى الخرافات الشعرية منهم إلى العلم الإلهي . ولم تكن لهم كتب مقدسة ولا عقائد . ومع هذا كان تدينهم عميقاً . واشترك معظمهم في الاحتفالات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واحتفل كثير منهم بالأسرار احتفالا تملؤه حماسة صادقة . وحاول القليل منهم أن يجمع بين النزعة العقلية و « الحماسة » الدينية (ولم لا ؟) . أما جمهرة

العامة فكانت فريسة التنبؤ بالغيب والخرافات من كل لون .

وآخر المتناقضات أن قدماء اليونان لم يعرفوا أى نوع من الإلهيات المنظمة : ومع هذا خلقوا الأدوات المنطقية التى احتاجت إليها الأديان الكتابية الثلاثة . وهى اليهودية والمسيحية والإسلام . ذلك أن لحمة كل دين من هذه الأديان هو الكتاب والسنة . أما سداه فيونانى . أى إن اليونانيين لم يستنبطوا لأنفسهم علماً إلهيًّا يختصون به . ومع هذا فهم الذين أسسوا العلم الإلهى .

مراجع

Paul Tanniery)1843-1904), Pour l'histoire de la science Hellène (Paris, 1887); rev. ed. by A. Dies (Paris, 1930). The revision was very insufficient, but much of the old text retains its importance.

– Rech (erches sur l'histoire ep l'astronomie ancienne (Paris, 1893).

John Burnnet (1863-1928), Early Greek philosophy (London, 1892; ed. 2, 1908; ed. 3, 1920).

Theodor Gomperz (1832-1912), Griechische Denker (3 vols.; Leipzig, 1896-1909); (Greek thinkers) (4 vols.; London, 1901-1912).

Hermann Diels (1848-1922), Die Fragmente der Vorsokratiker (Berlin, 1903; ed. 3, 3 vols., 1912-1922; ed. 4, anastatic reprint. 1922; ed. 5, Berlin, 1934-35).

Kathleen Freeman, The pre-Socratic philosophers (500 pp.; Cambridge: Harvard University Press, 1946). This is derived from Diels. the chapters being numbered as in Diels' fifth edition. All in English !

obeikandl.com

التعليقات

(١) انظر : Pindar : Olympian Ode VII. 36

(٢) اللفظة صحيحة إذا اعتبرنا معناها الأصلي فقط : miraculum ، أي الشيء المدهش أو العجيب . وأصبحت اللفظة موضع الاعتراض لاستعمالها في ترجمة الإنجيل الإنجليزية للدلالة على علامة إلهية أو نبوية (oth, semeion) أو على فعل للقوة الإلهية .

(٣) انظر : John Burnet, «Who was Javan ? a paper read before the Classical Association of Scotland in 1912 Essays and addresses (London, 1929), pp. 84-101.

(٤) يدل اصطلاح فسيولوجيا Physiologia على نفس المعنى لعبارتنا الفلسفة الطبيعية natural philosophy ، أو الطبيعة physics (بالمعنى الواسع) . واشتقت أسماء علومنا من اليونانية بطريقة تعسفية جدا ، وفي كثير من الأحوال يستحيل استنتاج معناها المقصود من المعنى الأصلي . وهكذا نجد أن الجغرافيا هي علم الأرض ، والجيولوجيا علم آخر ، أما التنجيم astrology فخرافة . ويقتصر معنى الفسيولوجيا الآن على دراسة وظائف الكائنات الحية ، بل دراسة وظائف الجسم الإنسان فقط .

(٥) في الحالات القصوى التي لم توجد فيها طرق للمواصلات ، تنطبق الوحدة على الأجزاء المنعزلة ، على أن إمكانية هذه الوحدة لم تنعدم ، لأن جميع الناس مخلوقون بطريقة واحدة ، ولهم نفس العقول والأهواء والرغبات . مثال ذلك أن الأمريكيين قبل عام ١٤٩٢ عاشوا في عزلة تامة عن سائر العالم ، فكانوا حتى وقتذاك « أهل عزلة » بالطبيعة . والموازنة بين حلول الأمريكين لكثير من المشكلات وبين الحلول التي انتهى إليها الناس في سائر العالم أمر بالغ الأهمية لأنه برغم ما بين تلك الحلول من خلاف ، فهو خلاف غير أساسي ، لأن العقل الأمريكي عقل إنساني ، والمشكلات الأمريكية مشكلات إنسانية . وكلما كانت ظروف المشكلات جديدة ظهرت حلول جديدة ، ومثال ذلك عندما استأنس الأمريكيون الأصليون أو استغلوا النباتات والحيوانات التي لم توجد إلا في بلادهم .

(٦) الاسم الجاري للنبي في عهد قديم هو « نبي » ، لكن « الرائي » أو العراف هو الاسم الأسبق منه ، كما جاء واضحاً في سفر صموئيل الأول ٩ : ٩ ، وكذلك « حوزي hozeh » بالمعنى نفسه . أما اللفظة المستعملة دائماً في العهد الجديد فهي نفس ما نستعمله أي النبي prophet es .

(٧) أثيرت شكوك حول حقيقة لاوتسو Lao Tzu ، وعصره ، ويعد كثير من الباحثين الكتاب « طاوتي شنج Tao ta ching » من تأليف متأخر جداً . ومع ذلك فإن نواة « الطاوية Taoism » ترجع على الأقل إلى القرن السادس . انظر :

Homer Dubs (1941 Isis 34, 238, 423) 1942-43).

وانظر : Arthur Waley, The Way and its Power (London : Allen and Unwin 1934).

(٨) يجد القارئ بعض ما يحقق رغبته في كتابنا : (Introduction : Vol. I. pp. 66-70).

obeikandl.com

(٩) انظر التفصيل فى : Isis, 21, 341 (1934)

(١٠) المدن الاثنتا عشرة الأيونية التى كونت فيما بينها اتحاداً بعض الأحيان هى : ملطية ، ميوس ، بريين ، ساموس ، أفيسوس ، قولوفون ، ليبدوس ، ثيوس ، ارثيراى ، خيوس ، كلازوميناى ، وفوقايا . وكانت المدن الثلاث الأولى على شاطئ كاريا ، وبقيتها على شاطئ ليديا (شمال كاريا) . أما أزمير (وهى من أصل أبولى لا أيونى) فاستولت عليها قولوفون عام ٦٨٨ ، وظلت مدينة أيونية بعد ذلك .

(١١) هذه المدينة إحدى المدن القليلة التى ذكرها هوميروس (الإلياذة ٢ ، ٦٤٧) فى «كريت ذات المدائن المائة » (Crete Hecatompolis)

(١٢) لانستطيع المبالغة فى أهمية زيت الزيتون فى اقتصاديات البحر المتوسط فى ذلك العصر ، لأن الزيت كان يحل محل الزبد عندنا ، وإلى حد ما مكان الصابون ، كما كان يستعمل فى الإضاءة

(١٣) كان قارون Croisos آخر ملك مستقل فى ليديا ، وحكم ابن ألياطس Alyattes من ٥٦٠ حتى ٥٤٦ عندما غزاه قورش . ولا نزال نطلق اسمه للدلالة على الغنى الفاحش ، وعلى حكمة قديمة رواها سولون عنه وهى : السعيد من انتهت حياته انتهاء سعيداً . وأبقى قورش على حياة قارون ، فعاش إلى ما بعد وفاة قورش ، حتى صحب ابنه قمبيز فى غزو مصر عام ٥٢٥ .

(١٤) هذا يفسر لنا كيف أن ملطية ذات الأهمية العظيمة فى تاريخ العلم فى القرن السادس لاتسترعى نظرنا بعد ذلك العصر .

(١٥) – لم يترك الباحثون فى نقد المصادر وزيادة لمستزيد . انظر (Tannery, Burnet Diels) فى قائمة المراجع فى نهاية هذا الفصل .

(١٦) للرجوع إلى مختصر عن تاريخ ملطية القديمة انظر :

Adelaide Glynn Dunham, The history of Miletus down to the anabasis of Alexander (164 pp. 4 mapos London, 1915).

(١٧) أقدم قائمة هى التى نجدها عند أفلاطون (بروتاجوراس ٣٤٣) . وهى موافقة للقائمة المشهورة التى أوردنا نصها ، فيما عدا طاغية برياندروس استبدل بميسون من خنياى ، وهوشخص غير مشهور من بلد مجهول . وقيل إن أفلاطون استبعد برياندروس لأنه كان طاغية .

(١٨) Barkowski, «Sieben Weise," Pauly-Wissowa, ser. 2, vol. 4 (1923), pp. 2242-2264.

Bruno Snell, Lepen und Meinungen der Sieben Weisen (Tusculum Bücher; 182 pp.; Munchen : Heimeran, 1938).

وفى هذين المرجعين توجد جميع الروايات المختلفة باليونانية (أو اللاتينية) والألمانية .

(١٩) فى طبعة قديمة موجودة بمكتبة هارفارد كتاب بعنوان « الحكماء السبعة ومأثوراتهم ونصائحهم وتعاليمهم » .

Septem sapientium et eorum qui cum iis adnumerantur apophtegmata, consilia et praecepta (19 pp. in Greek only Paris, 1554).

obeikandl.com

وجدت مائة كبيرة من الأقوال المنسوبة للحكماء السبعة (القائمة كما أوردنا نصها فى هذا الجزء) وثلاثة آخرين هم : أنخارسيس ، وميسون ، وفريسيدس من سيروس ومثال ذلك أن الأقوال المنسوبة لطاليس تملأ صفحتين . أهذه الطبعة هى أول طبعة يونانية ؟ إن أول طبعة لمجموعة مماثلة باللاتينية Dicta septem sapientum Graeciae (ثمانى ورقات) طبعها فى كولونيا جوهان جولدنشاف ١٤٧٧ — ١٤٩٧ . انظر كتالوج الكتب المطبوعة فى القرن الخامس عشر والموجود الآن فى المتحف البريطانى (لندن ١٩٠١) المجلد الأول ص ٢٥٦ ، وانظر :

Arnold C. Klebs, "Incunabula scientifica et medica," Osiris 4, 1-359 (1938), No. 905.

(٢٠) هيرودوت ، ١ .

(٢١) لا يصح أن نخلط بين الحكماء السبعة (اليونانيين) وبين الحكماء السبعة (فى روما) ومع أن هناك اتصالا بين المجموعتين إلا أنهما مستقلتان وبينهما غاية الخلاف . ومن المقطوع به أن المجموعة الثانية من أصل شرقى ، وكانت شهرتها فى الشرق والغرب عظيمة جدا ، وعليك أن تتأمل وجود الروايات المختلفة فى كثير من اللغات . وقد كتبت مباحث كثيرة حول هذا الموضوع نكتفى بذكر بعضها للتوجيه العام .

Killis Campbell, A study of the romance of the seven sages with special reference to the Middle English versions (108 pp. Baltimore, 1890)

The seven sages of Rnme (332 pp. Boston, 1907), edition of Middle English text with notes.

Joseph Jacobs, Jewish Encyclopedia, vol. 11, p. 383 (1905).

Carra de Vaux, «Sindibad-name, Syntipas," Encyclopedia of Islam, vol. 4, p. 435 (1927).

Jean Misrahi, Le roman des sept sages (170 pp. Paris : Droz, 1933), an early French text.

(٢٢) أرسطو ، ما بعد الطبيعة ، ٩٨٣ ب . (٢٣) هيرودوت ، ١ ، ١٧٠ .

(٢٤) المرجع السابق ، ١ ، ٧٤ . (٢٥) كتاب النفس ، ٤٠٥ أ .

(٢٦) انظر : Osiris 2, 415-416 (1936).

(٢٧) انظر : Stephen Langdon, "The Babylonian conception of the logos," J. Roy. Asiatic Society. (1918) pp. 433-449 (Isis 4, 423) (1921-22).

(٢٨) القرآن ٢١ ، ٣٠ — سورة الأنبياء (٢٩) أرسطو ، كتاب السياسة ، ١ ، ١٢٥٩ أ .

(٣٠) كان مطمع كل شريف من أبناء هيلاس على الدوام أن يحصل على ثروة كافية يعين بها أهله حتى يمجد ويذكر على أنه صاحب الفضل (evergetes) على أمته أو بلده .

(٣١) تمت ملاحظات مماثلة عند الصينيين فى مدينة يانج تشنج (تسمى حديثاً كاوتشنج تشن هونان) فى أثناء أسرة شو (عام ١٠٢٧ — ٢٥٦) ، حيث كانوا يستعملون برجا مزولة ،

(٣٢) يوضح الرسم الموجود فى شكل (٤٦) معلومات القارئ. تثبت المزولة عند النقطة ص ، يبلغ أقصر وأطول ظل ص س ١ و ص س ٢ عند الظهر فى الانقلابين. الزاويتان المقابلتان ن ١ ،

ن ٢ تبينان سمت الشمس فى الوقتين . وكلما سارت الشمس بأبعاد متساوية شمال خط الاستواء وجنوبه كان متوسطا سمت المسافتين المقابلين للزاويتين ن ١ و ن ٢ هما السمت . وهذا أيضا هو انحراف السمت عند ص ، أو العرض عند الصفر . وهكذا فإن ١/٢ (ن ١ + ن ٢) وانحراف سمت الشمس يستخرج من المعادلة = ١/٢ × (ن ١ − ن ٢) .

(٣٣) غالى William Arthur Heidel فى المظهر الجغرافى لكتاب أنكسمندروس. انظر :
"Anaximandros book, the earliest known geographical treatise," Proc. Am. Acad. Arts Sci. 56, 237-288 (1921).

(٣٤) طبقاً لسمبلقيوس (النصف الأول من القرن السادس) كان أنكسمندروس أول من استعمل لفظة مبدأ arche بهذا المعنى (وتحتفظ اللفظة بمعناها فى الإنجليزية مثل ونموذج أول archetype

(٣٥) كما أن النفس تمسكنا لأنها هواء ، كذلك يحيط النفس والهواء بالكون بأسره Holon ton cosmon pneuma cai aer periechei أنكسمنيز ، نص رقم ٢

(٣٦) روح الله pneuma theu (سفر التكوين ١ : ٢) . ويرجع تاريخ الترجمة اليونانية السبيعية للتوراة إلى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. وتتردد لفظة « بنيما pneuma كثيراً فى العهد الجديد بمعنى النفس والروح والطيف والحياة .

(٣٧) التجربة غريبة فى بابها ولكنها خادعة ، والنتيجة التى انتهى إليها أنكسمنيز تخالف الحقيقة ، لأننا نعرف الضغط المائى adiabatic يزيد فى درجة الحرارة على حين أن التمدد adiabatic ينقص منها .

(٣٨) فى نص رقم ٣٤ لديمقريطس (القرن الخامس قبل الميلاد) نجد عبارة الإنسان عالم صغير anthropos micros cosmos ، ويقال إنه كتابان أحدهما بعنوان العالم الكبير megas cosmos والآخر بعنوان العالم الصغير micros cosmos وأكبر الظن أن فكرتى العالم الصغير والعالم الكبير شاعتا بعد ذلك ، ومع ذلك فالكتاب اللاتينيون هم الذين استعملوا الاصطلاحين أكثر من الإغريق انظر العالم الصغير عند : H. Stephanus, Thesaurus graecae linguae (Paris : Didot, no date), vol. 5, p. 1052 (orig. pub. Paris : Stephanus, 1572).

(٣٩) انظر : Natural History, II, 6, 31.

(٤٠) يتصورون البرج بوجه عام على أنه حرام أو نطاق عرضه ١٦° تقريباً ، ويقسمه السمت قسمين . أما اتساعه المضبوط فلا يهم .

(٤١) اللفظة التى نستعملها فى اللغة الإنجليزية وهى signs ، أو فى اللاتينية signa هى ترجمة اللفظة اليونانية semeia . وتعنى علامات الآلهة « omina » ومن الممكن أن كليوستراتوس كان أول من استعمل الكلمة فى معناها الفنى المختص بالبروج ، وبخاصة الحمل والقوس . وتشير لفظة بروج zodiacos (cyclos) إلى الصور الحية ، وكانت تترجم عادة إلى اللاتينية signifer . كما قال شيشرون : « ما نقوله signifero فى الفلك هو ما يقوله اليونانيون "Signifero in orbe qui Graece zodiacos dicitur" (Cicero, De divinatione II, 42, 89).

واصطلاح « صور البروج » غامض ، لأنه قد يشير إلى اثنى عشر قسماً من منطقة البروج يمتد كل منها إلى ٣٠ درجة طولية ، أو يشير إلى مجموعة النجوم الخاصة بكل قسم . ولا نستطيع القول مع غياب النصوص أى هذين المعنيين كان الأول فى ذهن كليوستراتوس ، كما لا نستطيع القول هل اهتدى إلى الصور الاثنى عشرة أو إلى اثنتين فقط ، أو أكثر .

(٤٢) تقع إيليا جنوب بيستوم ، واسمها الحديث هو كاستيلاماري دى فيليا Castellammare de Veglia أو (della Bruca) . أما الرواية التى تذهب إلى استقرار زينوفان فى إيليا ، ولا نريد أن نذكر رواية تأسيسه للمدرسة الإيلية ، من أضعف الروايات ومع ذلك فهناك سبب لا بأس به دعاه إلى زيارة إيليا ، وهو إنشاء مستعمرة من الفوقيين Phocaeans (عام ٥٤٣ أو ٥٣٦ ؟) بعد انتصار الفرس مباشرة على أيونية . وأغراه الذهاب إلى تلك المدينة ورؤية مواطنيه الذين كانوا مثله لاجئين سياسيين .

(٤٣) نقلاعن : .Arthur Stanley Pease, "Fossil fishes again," Isis 33, 689-690 (1942)
وينبغى أن ننبه القارئ إلى أن هذا النص الذى استخلصناه من رواية متأخرة نسبيا ، إذ أخذ عن ذلك المصدر الثمين للمعرفة القديمة المسمى ، « الأمور الفلسفية to philosophumena » لهيبوليتوس (النصف الأول من القرن الثالث) . هذا وفكرة طوفان عام تتصل بالأساطير الشعبية فى كثير من الأمم . وكان اليونانيون يمثلون فى خرافات ديكاليون وفيرا اللذين بعد نجاتهما من الهلاك أصبحا الأجداد الأصليين للجنس الهليني .

(٤٤) انفصلت الحبشة انفصالا تاماً عن مصر منذ ذلك التاريخ .

(٤٥) Hoplisthentas chalcō. Herodotos, II, 152.

(٤٦) كانت مدينة بلوز Pelusium المحصنة مفتاح مصر من الجانب الشمالى الشرقى ، وموقعها شرق أقصى مصب للنيل شرقاً .

(٤٧) من المحتمل أن تكون تحفة العصر الفنية رأس رجل كسر أنفه ، من البازلت الأخضر ويوجد الآن فى متحف برلين ، وكثيراً ما تطبع صورته . ويذكر هذا التمثال بأثر آخر من المملكة القديمة .

(٤٨) إننا نجد صدى لهذا فى العهد القديم : Jermiah 46 : 1-12 2 Kings 24 : 7 :

(٤٩) البرنخيديون من نسل برانخوس بن أبولون من امرأة ملطية ، وكانوا الكهنة يتوارثون مهنة الإشراف على وحى أبولون ديمايوس Apollo Didymaios فى ديديما على مقربة من ملطية . ونفاهم أجزرسيس (ملك الفرس ٣٨٥ — ٦٥) إلى بكتريا أو إلى صغدانيا عبر نهر جيحون .

(٥٠) Herodotos, II, 158. (٥١) المرجع السابق ٤ ، ٤٢ .

(٥٢) H.F.Tozer, History of ancient geography, ed.2 by M. Cary (Cambridge: University Press 1935), pp. 98-101.
على أن هذا المؤلف غير مقتنع ويظن أن راوياً بارعاً اخترع تلك الواقعة عن قصد ليضفى على القصة الثقة . ولست أعتقد أن هيرودوت ومصادره على هذا النحو من الكذب والتزييف. وللرجوع إلى قصص

العصر الوسيط عن الملاحة حول أفريقية انظر :

Introduction, vol. 2, p. 1062 vol. 3 pp. 803, 1892)

وليست تلك القصص فى قوة إقناع قصة هيرودوت . وينبغى ملاحظة أن الملاحظ حول إفريقية فى العصر الوسيط ، إذا كانت وقعت بالفعل ، سارت فى الاتجاه المضاد . والأمر كذلك صحيح عن أول دورة حول رأس الرجاء الصالح شرقاً قام بها برثلميو دياز سنة ١٤٨٨ وعن أول دورة (تكاد تكون كاملة) حول الأرض بحراً قام بها فاسكودا جاما عام ١٤٩٨ .

(٥٣) لا تشاهد اليوم خرائب نقراطيس (ولا سايس) ، لكن فلندر باترى أجرى حفائر بها حيث كشف كثيراً من الأشياء الصغيرة. انظر تقريره عن ..Naukratis (2 vols. London 1886-1888)

(٥٤) To Hellenion . ولعله كان أكثر من معبد ، وقد يكون جميع الحى اليونانى أو بعضه والذى كان يشتمل على معابد الآلهة اليونانية theoi Hellenioi

(٥٥) لنذكر طرفاً من التأثيرات المصرية الواضحة فيما يسمى النحت اليونانى القديم (لا أستطيع الإطناب هنا ، والتبسط واجب) . كانت تماثيل الشباب القديمة توضع قائمة كتماثيل قدماء المصريين وتتميز ببروز القدم اليسرى إلى الأمام. وإن مجموعة من النحت المصرى بما كتبه Gisela M.A. Richter عن التماثيل kouroi ، فى كتابه : A study of the development of the Greek kouros from the late seventh to the early fifth century (New York : Oxford University Press, 1942).

(٥٦) حرك خراب ملطية مشاعر اليونان إلى الأعماق ، فأدى ذلك إلى اتحادهم وتقويتهم ، فهزموا جيش الفرس فى وقعة ماراثون عام ٤٩٠ ، وأوقفوا جيشاً فارسياً آخر عند ممر ترموبلاى عام ٤٨٠ ، وكسبوا المعركة البحرية فى سلاميس فى العام نفسه ، ثم هزم الفرس نهائياً أرضاً فى بلاتايا وانكسر أسطولهم فى ميكال سنة ٤٧٩ ، وكان النصر البحرى فى ميكال الشديدة القرب من ملطية أفضل انتقام لنهب تلك المدينة خمسة عشر عاماً من قبل .

(٥٧) كان ديمتريوس من فاليرون Phaleron (وهى أحد ثغور أثينا) خطيباً بلغ من شهرته أن الأثينيين أقاموا له ٣٦٠ تمثالا ، ثم انقلبوا عليه فيما بعد وحكموا عليه بالموت ، ففر إلى مصر حيث ساعد بطليموس الأول على إنشاء مكتبة الإسكندرية . ثم نفاه بطليموس الثانى (حكم من ٢٨٥ إلى ٢٤٧) إلى صعيد مصر حيث مات بلدغة ثعبان. أما كتابه رسالته فى (Peri hermeneias الذبارة) الذى أخذنا عنه النص الذى أوردناه فلعله من تأليف شخص آخر باسم ديمتريوس من الإسكندرية

(٥٨) Müller, fragment 332 (1841). Hecataios Milesois hode mytheitai tad graphō, hōs moi alethea doceei einai hoi gar Hellenon logoi Polloi te cai geloioi, hōs emoi phainontai, eisin.

(٥٩) هذا الملخص مأخوذ عن النصوص ، وعن هيرودوت ٤ ، ٣٦ ، الذى يزعم أن الآراء الجغرافية التى يسخر منها هى لهيكاتايوس .

(٦٠) Müller, fragments, 292-294.

(٦١) Gelo de horeon ges periodus gransantas pollus hede (Herodotos, IV, 36)

« إنى أضحك حين أرى كيف أن كثيرين قد رسموا خرائط الأرض » . وتدل عبارة periodos gēs التى جاءت فى هذا النص على خريطة لا الوصف اللفظى . كما تدل graphō على الرسم لا الكتابة .

(٦٢) Herodotos, V, 49.

(٦٣) كان كليومانس هذا ملكاً على إسبرطة من ٥٢٠ إلى ٤٩١ . وقد ازاره أرسطاجوراس قبل ٤٩٩ (وقد رفض الإسبرطيون مساعدته ولكن الأثينيين ساعدوه) وظفر أرسطاجوراس ببعض النجاح المؤقت واستولى على ساردیس عام ٤٩٩ ، ولكن الفرس تفوقوا عليه بعد ذلك . ثم فر إلى تراقيا حيث ذبح عام ٤٩٧ قبل أن يشهد تخريب ملطية .

(٦٤) Herodotos, II, 19-25.

(٦٥) Etēsiai anemai هى الرياح الموسمية التى تهب من الشمال الغربى فى أثناء الصيف ، أو فى بحر إيجة لمدة ٤٠ يوماً منذ شروق النجم المعروف بالشعرى اليمانية Dog star (Sirius) ولفظة Etesiai الموجودة فى هذا النص تساوى لفظة موسم monsoon (وفى العربية موسم ومواسم ، أى فصل) .

(٦٦) انظر الخريطة ، أو Müller, fragment 287

(٦٧) التفسير الصحيح هو الذى قدمه أرسطو (النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد) يحدث الفيضان فى مصر بسبب الأمطار الاستوائية فى أعالى النيل الأزرق والنيل الأبيض ، والتى تنزل فى الربيع وأوائل الصيف . انظر فى هذا الموضوع : Introduction, vol. I, p. 136 vol. 3 p. 1844.

(٦٨) يقال إنه أدخل ديانة ربة كريت ريا Rhea ، زوجة كرونوس ، وأم زيوس وغيره من الآلهة ، واتحدت ريا فيما بعد مع « الأم الكبرى » فى فيرجيا . وربما نتصور بسهولة أن ذلك التجديد الجرىء أزرى بالأسكيذيين وأخافهم . كان أناخارسيس يهرب مع ريا — بالقوة — سائر الميثولوجيا اليونانية .

(٦٩) استعملت المنافخ فى مصر منذ الأسرة الثامنة عشرة على الأقل ، ويرجع استعمال عجلة الخزاف إلى الأسرة الأولى . انظر :

Alfred Lucas, Ancient Egyptian materials and industries (London : Edward Arnold, ed. 3, 1948), p. 246 (Isis 43)

Flinders Petrie, Wisdom of the Egyptians)London : British School of Archaeology in Egypt, 1940), p. 133 (Isis 34, 261 (1942-43)) .

أو المرساة ، فانظر : F.M. Feldhaus, Die Technik (Leipzig, 1914), p. 930

Albert Neuburger, The technical arts and sciences of the ancients (London, 1930), p . 493.

(٧٠) انظر الكتب الجيدة التى كتبها . Maurice Badolle, L'abbé Jean-Jacques Barthélemy. (1716-95) et l'hellénisme en France dans la seconde moitié du XVIIIe siècle (414 pp. Paris, 1927).

ولد برتلمى بكاسيس Cassis فى البروفانس ولكنه أنفق معظم حياته فى باريس . ولم يزر اليونان

قط ، ولم يكن متخصصاً ممتازاً فى اليونانيات فحسب بل كان مستشرقاً كذلك وهو أحد مؤسسى علم المسكوكات (١٧٥٠) وحل رموز كتابات بالميرية (١٧٥٤) كان أول مفسر للفينيقية (١٧٥٨) وكان عالماً متخصصاً فى المسكوكات ، لأنه كان مديراً للإدارة الملكية للميداليات ، وقد تضاعف اختصاصها تحت إدارته . وتعتمد شهرته الشعبية على كتابه « الرحلة » الذى وقف عليه نصف عمره . وتقوم شهرته العلمية على مذكرات نشرتها أكاديمية الخطوط Académie des Inscriptions وعلى المجموعة الملكية للنقود والميداليات .

(٧١) يترك « أناخارسيس الصغير » اسيكذيا عام ٣٦٣ ويرحل إلى بيزنطة ولسبوس وطيبة (فى بويوتيا) فيبلغ أثينا بعد عام ، ويزورها كما يزور أجزاء متعددة فى اليونان ، ويحضر الألعاب الأولمبية ، وهكذا . ويرحل من ٣٥٤ إلى ٣٤٣ إلى مصر وفارس ثم يعود إلى ميتيلين حيث يقابل أرسطو . ثم يعود إلى أثينا ولكنه بعد قليل يرحل إلى آسيا الصغرى وجزر اليونان حيث يشهد عيد ديلوس و يعود إلى وطنه بعد معركة خيرونيا (٣٣٨) .

(٧٢) ومما يوضح شهرة أناخارسيس فى نهاية القرن الثامن عشر هذه القصة المسلية ، وذلك أن البارون دى كلوتز الغريب الأطوار ، الذى ولد فى دوقية كليفس عام ١٧٥٥ ، وانبرى للدفاع عن الإسلام ، وكان فرنسيا ثوريا ، و « خطيب الجنس البشرى » ، اتخذ لنفسه اسم أناخارسيس ، وقد قطع رأسه بالمقصلة سنة ١٧٩٤ . ولست أعلم بالضبط متى اتخذ ذلك الاسم ، أكان ذلك قبل نشر كتاب برتلمى ، أو نتيجة لنشره .

(٧٣) الفحص عن المسكوكات أفضل تدريب على الدقة ، وكانت معارف برتلمى الواسعة عظيمة القيمة ، أى أفضل ما كان يمكن الحصول عليه فى ذلك الوقت . لكن كتابه يمتاز بسوء التأليف لأنه بما فيه من غزارة وأسلوب خطابى يخرج عن أن يكون قصة ، وبما فيه من فساد الترتيب وفوضى التأليف يبعده عن أن يكون كتاباً . لم يكن « سمكاً ولا دجاجاً » ومع ذلك أقبل الجمهور عليه وأحبه ، لأن ما فيه من معارف عميقة كان معروضاً بطريقة يسهل على الجمهور تحصيلها مما أشبع فيه حب الزهو .

(٧٤) ترجع النزعة اليونانية فى فرنسا بدرجة كبيرة إلى مؤلف واحد هو بلوتارك (النصف الثانى من القرن الأول) الذى كان يقرأ فى ترجمات فرنسية أحبها ترجمة جاك أميوت (١٥١٣ - ١٥٩٣) وترجع محبة الآداب القديمة أولا إلى نفور من العصر الوسيط ، وفى وقت الثورة إلى نفور من « النظام القديم » والرغبة فى الرجوع إلى الطبيعة أو إلى الحضارة القديمة باعتبارها ألصق بالطبيعة .

(٧٥) يروى هيرودوت (٣ ، ٤٠ — ٤٢) أن ثيودورس هو الذى صاغ خاتم الزمرد الذى رماه بوليقراطيس الساموسى فى البحر ليهدئ من غضب الآلهة الحاسدين إياه على حسن طالعه ، ووجد الخاتم بعد بضعة أيام فى بطن سمكة ، وأحضر إلى بوليقراطيس . وقد جمعت المعلومات الخاصة بثيودورس الساموسى فى كتاب : Pauly-Wissowan, ser. 2, vol. 10, pp. 1917-1920 (1934).

(٧٦) Ho diabetes . ومن الغريب أن اللفظة ذاتها استعملها أريتايوس (النصف الثانى من القرن الثانى) للدلالة على مرض السكر diabetes . وهو أول من وصفه .

obeikandi.com

(٧٧) يمكن فحص صور فوتوغرافية لهذا الميزان المصرى وغيره من الآلات فى كتاب :

Somers Clarke and R. Engelbach, Ancient Egyptian masonry (Oxford, 1930) Figs. 263-267.

(٧٨) أرطميس = ديانا عند الرومان . ومن أقوالهم : « ديانا الخاصة بالإفيسوسيين عظيمة » (Acts 19 : 34) . وقد حرق الأرطميسيون Artemision ، أى معبد أرطميس ، هيروستراتوس الإفيسوسى ، آملا بذلك أن يخلد نفسه ، وذلك فى الليلة عينها التى ولد فيها الإسكندر الأكبر (٣٥٦) ثم أعيد بناؤه على نطاق رائع . وقد اكتشف جون ترتل وود سنة ١٨٦٩ أساسات المعبد القديم . انظر : Isis 28, 376-384 [1938]

(٧٩) وصف طرفهما فتر وفيوس (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) :

De architectura, X, 11-12.

(٨٠) Herodotos, 11-12

(٨١) يمكن فحص بقايا هذا النفق اليوم ، وقد سجل عمله فى كتابة موجودة الآن فى متحف القسطنطينية . وكتابة سلوام أطول كتابة عبرية قديمة . انظر أيضاً 2 Chronicles 32 : 30 وهناك أنفاق أخرى حفرت لتجلب الماء تحت الأرض فى شرق الأردن عند مكان مثل الشوبك ، وفى فلسطين فى أماكن مثل مجدو Megiddo وتل الدوير Lachish وتل جزر Gezer. وبعض هذه الأنفاق القديمة واسعة وتمثل أعمالا هندسية عظيمة . انظر : Nelson Glueck, The other side of the Jordan (New Haven : American Schools of Oriental Research, 1940), p. 17 (Isis 33, (1941-42) 279-281). ولم يحاول جلويك أن يحقق تاريخ هذه الآثار التى ترجع إلى ما قبل التاريخ .

(٨٢) فى الفصل ١٥ من ذلك الكتاب . انظر طبعة :

Peri dioptras byHermann Schone in Heronis opera. Merckel, Die Ingenieurtechnik im Altertum (Berlin. 1899), pp. 499-503, 619.

Wilhelm Schmidt, "Nivellier-instrument und Tunnelbau im Altertume", Bibliotheca Mathematica 4, 7-12 (1903)».

Neuburger, The technical arts and sciences of the ancients, pp. 416-417, 420-421.

أما اسم النفق فهو هيبونوموس hyponomos والفعل ديوروسين diorussein

(٨٣) Herodotos, IV, 87-89

(٨٤) Herodotos, IV,88 . واللفظة التى يستعملها للدلالة على القنطرة هى schedia ، وليس معناها واضحاً كل الوضوح — عائمة ، جسر عائم ، قنطرة من القوارب . ومهما يكن من شىء فلا بد أنها كانت ضرباً من الجسر العائم . وتدل عبارته اليونانية Edoresato pasi deca على الهدية العظيمة أو الهبة الوفيرة .

(٨٥) Cadmus Milesius in Charles Muller, Fragmenta historicorum graecorum (Paris, 1848), vol. 2, pp. 2-4). Eugeon Samius ibid., p. 16.

(٨٦) ساعد هوميروس فى هذا الأمر أيضاً إلى حد كبير . انظر إلى هذا البيت من الإلياذة (الإلياذة ٢ ، ٣٧١) حيث يقول « أنت الأب يازيوس مع أثيناى وأبولون Zeu te pater cai Atnenaie cai Apollon نجده يضع زيوس وأثيناى وأبولون فى الصف الأول ، وبذلك نشأ ضرب من التثليث السامى .

(٨٧) تعيننا الموازنة بالديانة الكاثوليكية على فهم مساوئ آلهة اليونان . لماذا تفوق لوريتو تدريجاً على سنتياجو دى كومبوستيلا ، ولوريتو على لورديس ؟ عندما أصبحت عبادة العذراء أكثر انتشاراً ظهرت تدريجاً نزعة لأفراد مزارات خاصة وإلى اعتبار مظاهر مختلفة للسيدة مريم كأنها أشخاص مختلفة . حتى أصبح المؤمن لا يصلى للعذراء بل لصورة ألصق ويحتمل أنها أقرب -- مثل نوتردام دى هال أو نوتردام دى شارتر ، ونويسترا سينورا دل بيلار أو نويسترا سنيورا دى جواد يلوب أو قد يجردون صفة ويصلون لنوتردام دى ست دولور ، أو مادونا دلامير بركورديا ، أو مادونا أوملتا ، أو الحمل الطاهر ، كما كان اليونان يصلون ابتغاء النصر لأثينا سالبنكس ، وابتغاء الصحة لأثينا هيجيا ، أو ابتغاء الحكمة لبلاس أثينا .

(٨٨) استقر ذلك الاعتقاد فى زمن الشاعر بندار (٥١٨ - ٤٤٢) . أكبر الظن أنه أقدم من ذلك .

(٨٩) من المألوف فى اللغة الإنجليزية الحديث عن الألعاب أو الأعياد البناثينائية ، أما فى اللغة اليونانية فاستعمال بانثيناى يدل فى الغالب على كل شىء ، على الأعياد ، والألعاب والمباريات الموسيقية ، والقرابين . وتنطبق الملحوظة نفسها على الأوليمبيا (بدلا من الألعاب الأوليمبية وغيرها) والبيثيا (بدلا من الألعاب البيثية وغيرها) وكذلك الإخيا ، والنيميا .

(٩٠) Herbert William Parke, History of the Delphic oracle (465 pp., ill. Oxford : Blackwell 1939) (Isis 35, 250) (1944)).

(٩١) ترجع ثقتى الخاصة بالصدق الباطن للكاهن العادى والمتنبئ إلى ما قرأته فى بلوتارك (النصف الثانى من القرن الأول)

(٩٢) لفظة عصبية enthusiasm (enthusiasmos) تستعمل هنا فى معناها الأصل وهى مشتقة من entheos أى مملوء بالإله ، موحى إليه ، متلبس ، فتفيد بذلك الإلهام الإلهى .

(٩٣) سميت باسم هذا الأفعوان طائفة من الأفاعى هى البيثونيداى pythonidae ، وتشتمل على أكبر الأنواع أما « البيثون » الأصلى فكان يستخرج من الطين الذى يبقى بعد الفيضان وكان يعيش فى كهف فى جبل بارناسوس . ولعل ذبح أبولون للأفعوان كان رمزاً لانتصار الخير على الشر أو النور والربيع على الظلمة والشتاء . ويمكن أن نرى منه نماذج مألوفة تتخذ صوراً مختلفة فى أساطير كثير من الأمم .

(٩٤) البلاسيجيون (Pelasgoi) أقدم سكان اليونان ، لكن موضعهم الأصلى محل خلاف : أفى شمال اليونان ، أم فى آسيا الصغرى أم كريت ؟ وكان الكيبيريون Cabiri آلهتهم . ويمكن أن تحل صفة « البلاسجى » Pelasgic محل « ما قبل التاريخ » .